قصة الملحمة

ملحمة السيد Poéma de Mio Cid أول نص أدبى قشتالى يصلنا، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن أول نص مكتوب هو أول نص قيل. وإنما هى قمة محاولات سبقتها، بدأت ربما منذ نهاية القرن العاشر، لتعبر عن صراع الحياة فى عصر تميز بالقلق، وهى نوع من الملاحم الشعرية Poésie épique ، لون من الأدب كان رائجاً فى الأندلس حتى نهاية القرن الخامس عشر، طوال فترة الصراع بين المسلمين والمسيحين، ولم ينضب إلابعد أن انتهت الحرب لصالح الطرف الأخير. ولم تكن ملحمة السيد وحدها هى التى تنسب إلى هذه الفترة، وإنما ثمة ملاحم أخرى سبقتها فى الأحداث، والتأليف، مثل التى قيلت فى **فرنان جونثالث**، وفى **لوس انفانتس دى لارا**، وفى **برناردو دل كابيو**، وفى **شارل مارتل** وغيرهم من الأبطال الذين برزوا فى صفوف القتال، من إسبان وفرنسيين، وليس من الضرورى أن يكون السبب دائماً تفوقهم على المسلمين، لأن القصائد التى قيلت فيهم قالتها الجماهير، وقالتها بعد حياتهم بزمن، فما كان فى ذاكرتها من الأحداث أشباح كستها الثوب الذى تريد، وفيما عدا ملحمة السيد فإن الملاحم الأخرى ضاعت ولم تبق منها غير فقرات نثرية، أو أخبار مقتضبة ،وهى ملاحم، فيما يرى العلماء الإسبان، سبقت ملحمة السيد أحداثا وتأليفا.

ملحمة السيد هى كل ما حُفظ لنا من ملاحم هذه الفترة، وهى لون من الملاحم الشعبية التى تتحدث عن البطولة وتدور حولها، ونُشرت منها مقتطفات لأول مرة، فى كتاب نشره M. Edelestand du Méril بعنوان : « قصائد شعبية من

الأدب اللاتينى فى العصر الوسيط». ثم طبعت كاملة ولأول مرة عام ١٧٧٩، حين نشرها **توماس أنتونيو سانتشيث** أمين مكتبة القصر الملكى فى كتابه «مختارات من الشعر القشتالى، السابق للقرن الخامس عشر» ثم طبعت ثانية عام ١٨٥٨، وتوالى نشرها بعد ذلك على نحو واسع منذ أول هذا القرن، بعد أن ثبّت قراءتها النهائية، وحل طلاسمها اللغوية، العالم اللغوى الثبت **رامون منينديث بيدال**، فى طبعتها الخالدة وتمت عام ١٩٠٨. ومن ذلك التاريخ فإن كل الطبعات تنقل عنه، وتفيد مما ألحقه بها من شروح وتفاسير، ذلك أن بيدال لم يكن عالماً باللغة أو التاريخ فحسب، وإنما وقف جانباً كبيراً من حياته العلمية الطويلة على كل ما يتصل بالسِّيد نفسه، تاريخاً وأسطورة وملحمة، ويمكن القول أن ملحمة السيد أولى روائع التراث الأدبى الإسبانى، دراسة واعتناء وإقبالا. وهى أول ملحمة شعرية أوربية تصلنا كاملة، إنها تسبق ملحمة La Chanson du Roland الفرنسية، وملحمة Les Nibelumgen الألمانية.

وصلتنا الملحمة فى مخطوطة وحيدة، كانت فى القرن السادس عشر موجودة فى محفوظات المجلس البلدى لقرية بيبار Vivar، وفى سنة ١٥٩٦م. قام من يدعى **خوان رويث** بنسخ واحدة أخرى منها، توجد الآن محفوظة فى مكتبة مدريد الوطنية، والنسخة الأم التى نقل عنها كتبها مجهول يدعى بير أبات Per Abbat، ويرى المستشرق الهولندى دوزى أن بير أبات هذا كان يعمل مرتلا فى الكنيسة الخاصة بالملك **ألفونسو العاشر**، وأن اسمه يرد فى الوثائق الخاصة بتوزيع الأراضى فى أشبيلية، وتوجد فى مطلع الجزء الثانى من كتاب «تاريخ إشبيلية» لمؤلفة **أسبينوسا**، وقد أمر بتوزيعها ألفونسو العاشر عام ١٢٥٣م، بعد أن افتتح والده **فرناندو** Fernando المدينة عام ١٢٤٨، ويرد اسم بير Per أو بيرو Pero، وكلاهما اختصار لاسم بدرو Pedro، فيها مرتين، إلى

جانب أسماء أخرى من عائلته، مرة عند توزيع الأراضى، والمرة الأخرى عند توزيع الحدائق.

تنتهى المخطوطة الوحيدة التى لدينا بالفقرة التالية :

مَن كَتب هذا الكتاب،

فإلى الله خالق السموات،

كتبه فى شهر مايو بير أبات،

عام CC XL. V.

ولكن يداً ثانية أضافت إلى هذه النهاية، فى نفس القرن الخامس عشر، فقرة أخرى مما تعود الشعراء الجوالون أن يرددوها على مستمعيهم عند نهاية الغناء أو الإنشاد :

لقد انتهت القصيدة،

فهبونى شيئاً من النبيذ،

فإذا لم يكن عندكم فبعض الدنانير،

أو شيئاً من الملابس تتركونه هناك،

وماأجمل أن تعطونى الملابس مع المال والنبيذ.

والأرقام الرومانية CC XL. V, تعنى عام ١٢٤٥ فى التاريخ الرومانى، وهو ما يعادل عام ١٢٠٧ فى التاريخ الميلادى. ويرى **دوزى** أن **بدرو أباد** هذا ناسخ الملحمة وليس ناظمها، لأننا نجده بعد كتابتها بستة وأربعين عاماً، أى فى عام ١٣٥٣، يتحدث عن مخطوطة الملحمة، فيقول إنه «نسخها»، وهو فعل

يستخدم للدلالة على الكتابة المادية، وليس مقصوداً به الخلق الفنى، لأن عملية الإبداع والنظم الشعرى، يعبرون عنها عادة بالفعل « ألفّ ». وهو افتراض يقوم أصلا على ما يراه تاريخاً لحياة بير أبات، فيما أشرنا إليه من قبل.

غير أن المختصين فى دراسة تطور الخط اللاتينى المستخدم فى الأندلس المسيحية يقولون إن طابع الخط الذى كُتبت فيه المخطوطة لا يمكن أن يذهب إلى أبعد من القرن الرابع عشر، ومن ثم فإن **منينديث بيدال** يرى أن هناك C ثالثة ساقطة فى التاريخ الذى بآخر المخطوطة، ومعها يجب أن يصحح فيكون عام ١٣٤٥ بالرومانى، أى ١٣٠٧ بالتاريخ الميلادى.

وهناك من يرى، اعتماداً على تقاليد الشعراء الجوالين، أن **بدرو أباد** لم يكن ناسخاً ولا مؤلفاً، وإنما عمد إلى عدد من القصائد التى كانت شائعة على أيامه عن السيد فألف بينها وأعاد بناءها من جديد. وعلى أى حال فإن الدراسة اللغوية للمخطوطة التى بين أيدنيا تظهر بوضوح أن النص نقل عن رواية مكتوبة وليست شفوية، وأن هناك عدداً محدوداً من المخطوطات، وربما كانتا اثنتين، اعتمد عليها الناسخ. وبجانب هذه المخطوطة الوحيدة للملحمة، لابد أنه كانت هناك مخطوطات أخرى، وربما مختلفة فيما بينها، قد ضاعت ولم تصلنا، وأن إحداها على الأقل كانت أصلا للملحمة، والذى ورد فيما يسمى « مدونة عشرين ملكا من قشتالة Cronica de Viente Reyes de Castilla » وقد كُتبت فى القرن الرابع عشر، نفس القرن الذى عاش فيه **بدرو أباد**، ودونت نص الملحمة نثراً، لتضمها إلى تاريخ مملكة ألفونسو السادس. وواضح بجلاء أنها تعتمد على أصل يغاير الأصل الذى اعتمد عليه بدرو أباد، لأن سير الأحداث فى المدونة يغاير سيرها فى النص الشعرى. ولكنه على أى حال كان عوناً كبيراً على تثبيت نص الأغنية وتصحيحها، وإضافة بعض الأشعار

الناقصة، وملء الفراغ الموجود فى النص، وتكملة بعض الصفحات الساقطة، لأن النص الشعرى، أى مخطوطة بدرو أباد، وصلنا تنقصه الصفحة الأولى وصفحتان فى الداخل.

سواء أكان النص الذى بين أيدينا من صنع فرد واحد، أو شارك فى بنائه أفراد عديدون، على ماسنرى، وسواء أكانت الفكرة نفسها تعود إلى شاعر جوال فرد، ابتدع القصة وصاغها، أو كانت همهمة جماعية، انبثقت تلقائياً، إعجاباً بالبطل وافتناناً به، فى أمكنة مختلفة وزمن متقارب، فالذى لاشك فيه أن الشعراء الجوالين والرواة من بعد، قد حوّروا فى الملحمة، نقصوا منها أو أضافوا إليها، أو أعادوا ترتيب أبياتها، وجرى كل واحد منهم بأحداثها على النحو الذى يرضى ذوقه أو عاطفته، حتى إذا شاعت وراجت وبدأ التدوين يمسك بما تناثر منها، انتهت إلى شاعر أخير أو إلى شعراء متعددين لانعرفهم، فالتقط الروايات كلها أو بعضا منها، وصنع منها الملحمة على النحو الذى هو بين أيدينا الآن، فجاءت متماسكة لا يستطيع إلا أمهر العارفين بتحليل الأسلوب الأدبى التمييز بين عناصرها المختلفة.

إلى أى تاريخ تعود فكرتها الأولى؟ يكاد العلماء يجمعون، اعتمادا على دراسة إشارات القصائد وعلى اللغة، على أنها تعود إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر، وأنها أُلّفت فى حياة الملك **ألفونسو السابع** الملقب بالأمبراطور المتوفى فى عام ١١٥٧م، لأن الشاعر وهو يعدّد رفاق الملك **ألفونسو السادس** ذكر **الكونت رامون دى بورجونيا** (١٠٩٠-١١٠٧م) **والكونت إنريك دى بروجونيا** (١٠٩٤-١١١٤م)، صهرى

الملك، وأشار إلى الأول منهما ونعته بأنه أبو الإمبراطور.

وعنـــدما أزف الموعـــد ذهبـــا إلى اجتماع البـــلاط،
وكان الملك الـطيب دون ألفـونسو أول مـــن حضر،
وأيضاً الـكونت دون إنـريك والـكونت دون رامـون،
والأخير كان أبا مـــن دُعـــى بـــالإمبراطور الـــطيب[1]

وبينما يذهب مثيو يوبس بتاريخها إلى أبعد من ذلك قليلا، فيرى، فى ضوء دراسته للنقود الوارد ذكرها فى الأغنية، أن الشاعر الجوال الذى ابتدعها عـاش فى الثلث الأول من القرن الثانى عشر، يـرى منـنـديث بيـدال، مسـتدلا بالأبيات التالية، وبالبيت الأخير منها على نحو أخص، على أن الملحمـة كانـت صدى لخطوبة تاريخية تمت عام ١١٤٠م:

وتحادث رسل ملكى نبرة وأرجون،
ثم اجتمعوا فيما بعد مع دون ألفونسو ملك ليون،
وكانت رائعة حفلات زواج دونيا إلبيرا ودونيا سول،
وإذا كان الزواج الأول عظيما، فقد كان الثانى أروع وأعظم،
وبه أصبحت الأسرة أكثر شرفاً،
انظر كيف يزداد كل يوم شرفاً من وُلد فى ساعة طيبة،
فابنتاه أصبحتا سيدتى نبرة وأرجون،
وملوك إسبانيا اليوم من أحفاده، وإليه ينسبون[2].

---

(١) القصيدة رقم ١٢٠.

(٢) القصيدة رقم ١٣٥.

فى هذا العام، عام ١١٤٠م، كان **غرسية راميريث** ملك نبرة وحفيد السيد، **وألفونسو السابع** ملك قشتالة، يتهيآن للحرب ثم عدلا عنها، بعد أن توسط بينهما أفراد الأسرتين الملكيتين، وكبار رجال الدين، ولضمان السلم واستمراره اتفقوا على تزويج الأميرة الطفلة «بلانش»، ابنة غرسية راميريث حفيد السيد، من الأمير الطفل شانجه ولى عهد قشتالة، والذى سيصبح فيما بعد ملكا تحت اسم شانجه الثالث، ولأن كلا من الأميرة والأمير كانا طفلين، فقد اتفق على أن تكون هذه مجرد خطوبة، أما الزواج فقد تم بعد ذلك بأحد عشر عاماً، أى فى سنة ١١٥١م، وكانت هذه المناسبة، والأفراح التى أحاطت بها السبب فى تأليف الملحمة.

لكن **دوزى** وهو حجة فى الدراسات الأندلسية فى العصر الوسيط، لا يرتضى هذا الرأى، ذلك أن الملحمة لم تذكر ولا مرة واحدة اسمى الأميرة «بلانش» أو الأمير «شانجه»، ولو كانت ألفت ابتهاجاً بزواجهما لاقتضى الحال أن يشار إليهما ولو عرضا.

وفيما أرى كان تأليف الملحمة لسبب بعيد عن هذا، كان رد فعل جماهيرى وعفوى من عامة المسيحيين فى الأندلس لإقصائهم عن الحروب الصليبية فى المشرق. لقد توفى السيد فى بلنسية بعد أن استولى عليها، فى نفس العام الذى استولى فيه الصليبيون على بيت المقدس، عام ١٠٩٩م، وكان لاستيلاء هؤلاء الصليبين على المدينة، التى تألم فيها المسيح، صدى عميق فى كافة أنحاء أوربا المسيحية، فانتشر الخبر فى سرعة مذهلة، وتغنت الجماهير المسيحية بأسماء أبطاله، وكان للمسلمين فى الجانب الآخر من الأندلس قصصهم وأبطالهم ونضالهم، فأصبحت حاجة الأندلسيين المسيحيين ماسة إلى أبطال وقصص يواجهون بها المجتمع المسيحى على أيامهم، ويقفون معه على قدم المساواة. وليس من قبيل المصادفة وحدها أن معظم الروايات المسيحية الأندلسية

التاريخية، منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر، تقدم الحادثتين، استيلاء السيد على بلنسية واستيلاء الصليبيين على بيت المقدس، جنباً إلى جنب. والحق أن وجه الشبه بين كلا العملين كان واضحاً، فكلاهما قام به جماعة من الفرسان ولم يقم به ملك؛ واستهدف الاستيلاء على مدن إسلامية، مع اختلاف الدافع عند السيد عنه عند الصليبيين. وهكذا أصبح السِّيد بطلا شعبياً، وليس بطلا قوميًّا، فلم تكن ثمة قومية إسبانية قد نشأت بعد فينسب إليها، واعتبر مثلا أعلى للشجاعة المقرونة بالتقوى والجود والنبل والفروسية، وامتزج ما كان من صفاته حقًّا، بما تخيله الناس فيه مثلا، فلم يعد من الميسور اليوم التفرقة بين الحقيقة والخيال.

وإذا كان العلماء قد انتهوا على نحو يكاد يكون قاطعاً، بأن الأغنية كتبت قريباً من عام ١١٤٠، فإن معرفة المؤلف الأول، أو حتى تحديد ماهيته، شيء لم يجزم به أحد بعد. وقد عكف **منندیث بیدال** على دراسة الطرق الواردة فى الملحمة، بتأن وحذر وعناية : فوجد أن الشاعر رغم أنه يذكر مدناً تغطى كل إسبانيا تقريباً ويصف عدداً من الطرق الهامة، يعطى أهمية خاصة، ويركز كثيراً على الطريق الذى يربط بين **بلنسية وبرغش**، والذى يرتاده أبطال الملحمة أكثر من غيره، فهو يعدد المحاط التى وقفوا عندها، ويسمى البلاد التى عبروها، ويذكر الجبال التى مروا بها، ويسجل بعض الحكايات الغامضة التى تسقط فى ذاكرته أثناء السير، فيروى لنا، ودون مناسبة، حكاية من مدينة سان استبان دى غرماج لا صلة لها بالسيد، ومجهولة تماما، ليس لدينا فحسب ، وإنما لكل القدماء الذين ليسوا من هذه المنطقة :

وعَبْرَ جبال مُونتس كلارُوس همزوا خيولهم،

وعلى الشمال منهم كانت مدينة جريثا، وعمرها بنو علم قديماً، والكهوف التى سُجِنَتْ فيها «إلفا» من قبل[١].

ويعطى للمنطقة أوصافاً جغرافية دقيقة، تعكس معرفة جيدة بالأرض الواقعة بين مدينتى مدينة سالم ولوثون، ومعرفة على نحو أقل بمنطقتين مجاورتين لها، وهما المنطقة الممتدة من غابات كوربس إلى الشمال الغربى، ومن مدينة قلعة أيوب إلى الشمال الشرقى، بين مدينتى سان استبان دى غرماج ونيبالوس. ولقد أنفق الشاعر أربعمائة وخمسين بيتا من الشعر فى وصف الاستيلاء على مكانين صغيرين هما قسطلون والقصير، وهو أمر لاشك فى حدوثه لكنه ليس بذى أهمية، فلا المصادر العربية تشير إليه، ولا التاريخ اللاتينى للسيد يعرض له. والشىء الوحيد الذى يفسر اهتمام الشاعر بهما أنهما يقعان قريباً من مدينة سالم على حين يصف الشاعر غزو السيد لقرى وحصون بريانة والمنارة والشارقة وبنيا كاديًا ومربيطر فى ثمانين بيتا. ويخص حصار بلنسية واستيلاء السِّيد عليها بخمسين بيتا فحسب، رغم أنه أكبر انتصار حربى حققه فى حياته، واقعا وأسطورة. وينبغى أن نلاحظ أن المنطقة التى بين مدينة سالم ولوثون، والتى يكثر الشاعر من الحديث عنها، لم تكن موطن أحداث ذات أهمية حربية، وكل ما هنا لك أن أبطال الملحمة فى ذهابهم وإيابهم كانوا يمرون بها، كما يمرون عبر مناطق أخرى غيرها، لا يعرفها الشاعر ولا يصفها، ولا يعرض لها ولا بكلمة واحدة، فهو يجهل تماماً الطرق ذات الأهمية البالغة خلال العصور الوسطى، وعلى نحو ما حتى أيامنا هذه ، كالطريق الذى يصل بلنسية بطليطلة أو الذى يصل بينها وبين قشتالة ماراً بسلسلة جبال وادى الرمة، لكى يتجه بعدها إلى كاريون أو إلى بلد الوليد أو إلى سهاجون وكانت أيضا معبراً مستمراً

---

(١) القصيدة رقم ١٢٨.

لشخصيات الملحمة، تقطعها جيئة وذهابا، فإذا عرض لها، فعل ذلك خطفا، أو لجأ إلى التعميم، كما فى الأبيات :

ووصل مينايا إلى بلد الوليد.

ومرّتْ الهضاب والجبال والمياه،

ووصلوا إلى بلد الوليد حيث الملك ألفونسو هناك[١].

أو اعتذر بأن تعدادها والوقوف عندها مُملّ يذهب بإقبال السامع عليه، كما فى الأبيات :

وخلفهم استقرت أرض بلنسية فى سلام،

وذهب مينايا ألبار هانييث إلى قشتالة،

وسأدع الأمكنة التى نزلها، لا أود أن أثقل بها عليكم[٢].

ومن ثم يمكن الظن بأن فكرة الملحمة بدأت فى مدينة سالم أو ما حولها، وهو ظن يجد له فى بعض ألفاظ الملحمة سنداً، فالمؤلف يستخدم كلمات متعددة فى شكلها الأرجونى، والذى كان رائجاً فى مدينة سالم، ومهملا فى برغش عاصمة قشتالة، ومازال حتى اليوم يكوّن إحدى الخصائص الواضحة فى لهجة أقصى الجنوب الشرقى من قشتالة القديمة، والتى تمثلها اليوم مقاطعة سوريا، لأن هذه المنطقة تعرضت فى الفترة التى سبقت تأليف الملحمة لتأثير أرجون، وكانت دائما منطقة نزاع، تحاول أرجون أن تنتزعها من قشتالة.

● ● ●

(١) القصيدة رقم ٩٨.

(٢) القصيدة رقم ٨٠.

ومن بين المحاولات التى تمت لتحديد المكان الذى ألّفت فيه الملحمة ما قام به العالم الألمانى **رودولفو بير Rodolfo Beer**، فقد ارتأى أنها كتبت فى دير كاردينيا، قريباً من برغش، وهو رأى يضعفه ما استخلصناه سابقاً من الوصف الدقيق الذى يقدمه الشاعر لمناطق جغرافية معينة، إلى جانب أنه لا يقدم لنا ، فى نفس الوقت، ملامح خاصة بالدير، فالشاعر لا يعرف كاردينيا إلا على أنها موضع لدير شهير فى قشتالة. ويجهل اسم رئيس الدير، وكان معاصراً لنفى السِّيد، ويأتى عوضاً عنه بشخصية أخرى أسطورية يسميها شانجه[1]، بدلا من الاسم الحقيقى لرئيس الدير وهو سان سيبوتو وهو شخصية ثابتة تاريخياً، وأشرف على الدير مدة خمسة وعشرين عاماً، وترك أثراً باقياً يستحيل على شاعر من كاردينيا أن ينساه، أو لا يعرض له عندما يتحدث عن موت السيد، وقد دفن فى نفس الدير.

أمّا **ج. برتونى G. Bertoni** الإيطالى، فيرتضى رأى **مينندیث بيدال** فى تحديد الموضع، ولكنه اعتماداً على الأبيات التالية :

يقومون على خدمته، ويكونون له حرّاساً أقوياء عبر الطريق،

وأعطاه ألف مارك من الفضة يقدمها لكنيسة سان بطرس،

على أن يعطى نصف المبلغ للشماس دون شانجه[2].

يرى أن الأغنية لها طابع دينى أكثر منه ملحمياً، كما أنها تمثل على نحو واضح خصائص ما عرف بشعر الحدود ، وهو ما يفسر اعتناءها باحتلال السيد لمدينتى قسطلون والقصير، لانهما تقعان على الحدود الفاصلة بين المسلمين والمسيحيين.

---

(١) انظر القصيدة رقم ١٤.

(٢) القصيدة رقم ٧٧.

يعزز الرأى فى تحديد مكان تأليف الملحمة بمدينة سالم وما حولها، أنها لا تشير إلى **المستعين**، أبى جعفر أحمد بن هود، ولا إلى **المؤتمن** أمير **سرقسطة**، وعمل السِّيد لحسابها زمناً، فدافع عنها، وقاتل أعداءها مأجوراً، ولا إلى القاضى **ابن جحاف**، القائم بأمور **بلنسية** عند استيلاء السيد عليها، وقد أمر به غداة انتصاره فأُحرق حياً، ولا إلى **بنى تجيب** أمراء وشقة ولا ردة وطرطوشة، ولا إلى القاضى **أبى الوليد الوقشى**، ولا إلى مسلمين آخرين ارتبطوا بالسيد وأحداثه ارتباطاً كبيراً، فى الوقت الذى يقدم لنا القائد **ابن غلبون** كشخصية هامة، رغم أنه مجهول تاريخياً، ولو أنه معروف للشاعر تماماً، لمجرد أنه يعيش فى مدينة مولينا، قريباً من مدينة سالم، وهى مدينة إسلامية على حدود قشتالة، وكذلك المبارزة التى تمت فى كوربس، وهى الحدث الرئيسى فى الملحمة، مع أنها غير معروفة، وتدخل فى باب الحكايات المحلية لمدينة سان استبان دى غرماج، وهى أيضاً مدينة صغيرة وقريبة من مدينة سالم.

فملحمة السيد إذن ألفت على حدود قشتالة مع الدولة الإسلامية، وكانت قشتالة خلال القرن الثانى عشر، فيما يبدو، مهبط إبداع شعرى، كما أبدعت الحدود مع الدولة الإسلامية فيما بعد ذلك بقرنين من الزمان، أى فى القرن الخامس عشر، لوناً آخر من الأدب هو شعر الحدود Los Romanceros de la Frontera ولحسن الحظ فإن جانباً كبيراً منه، بفضل اكتشاف الطباعة، وصلنا مكتوباً.

لقد استولى المسيحيون نهائياً على مدينة سالم فى عام ١١٢٠، وكُتبت ملحمة السيد فى هذه الأعوام، أو بعدها بأعوام لا تتجاوز العشرين، ويمكن أن نفترض أن الشاعر وُلد هناك بعد هذا الاستيلاء ، أو بعد الاستيلاء الأول الذى تم فى عام ١١٠٤م، أو هو من نواحى سان استبان دى غرماج وألفها

لتُنشد فى الميدان العام بمدينة سالم، وكانت ملتقى التجار والقادمين من مختلف الجهات، بل يمكن القول، فى ضوء لغة الملحمة، أن الشاعر كان من المستعربين Los Mozarabe، أى من المسيحيين الذين يجيدون اللغة العربية إلى جانب اللغة الرومانثية، ويسيرون فى حياتهم وفق التقاليد الإسلامية، وأقرب الظن أنه عاش فى مدينة سالم فترة من الزمن خلال عهدها الإسلامى.

بين مدينة سالم ومدينة سان استبان دى غرماج توجد مسافة تبلغ الثمانين كيلو متراً، وهى نفس المنطقة التى تجعل منها الملحمة المركز الدرامى لنمو الأحداث وتطورها، وفيها جرت المبارزة بين السيد وخصومه أميرى كاريون عندما اتهمهم بأنهم أهانوا بنتيه بعد الزواج منهما، وهو حادث تذكره الملحمة ولا سند له من التاريخ، وحدث ذلك فى غابات كوريس، وهى تقع قريباً من سان استيان دى غرماج، ويبدو أنها كانت صغيرة للغاية، حتى أن موقعها كان مجهولا للشخص الذى أعاد بناء الملحمة فى القرن التالى. بينما يسترعى اهتمامنا الشديد، دقة المعلومات، وصدق الأخبار، التى تقدمها الملحمة فيما يتصل بمدينة سان استبان دى غرماج. وكان موقعها عندما نُفِى السيد من قشتالة عام ١٠٨١ على الحدود الواقعة عند سيرادى ميدس، وقريباً منها كانت قلعة هنارس، وسكانها من المسلمين، وقد أخلدوا إلى السلام بعد أن عقدوا مع ألفونسو السادس حلفا، والذى آلمه أن يرى السيد يهاجمهم. وإنه لمن الغرابة بمكان أن تبقى مثل هذه الأشياء الصغيرة فى ذاكرة الناس، ولزمن طويل، حتى يأتى شاعر جوال فيجعل منها مادة لملحمته.

وعلى النقيض من هذه الدقة تكون الأخبار المتصلة بمدينة سالم، ففيها اضطراب وخلط، وأشياء غير مفهومة. وأبرز الأخطاء المتصلة بها أن المؤلف يعتقد أن **ألفونسو السادس** استولى على المدينة فى حياة السيد، بينما لم

يحدث ذلك إلا فى عام ١١٠٤، وامتلكها ألفونسو لأربعة أعوام فحسب أما الأستيلاء النهائى عليها، من قبل المسيحين فيجب أن يكون قد وقع قريباً من عام ١١٢٤م.

هذا التناقض بين دقة الأخبار التى تتصل بمدينة سان استبان دى غرماج واضطراب الروايات التى تتصل بمدينة سالم، جعل العالم الإسبانى **منندیث بيدال** يظن بأن ملحمة السيد التى وصلتنا، هى فى الأصل ملحمتان، ولها مؤلفان؛ وأن إحداهما هى إعادة بناء للأخرى. نعم كان هناك شاعران واحد من سان استبان دى غرماج، ويغلب على الظن بأنه كتب ملحمته قريباً جدًّا من مطلع القرن الثانى عشر، بسبب موت السيد عام ١٠٩٩م، وهو دقيق فى سرده للوقائع، يعرف الأحداث التى يتغنى بها، كما لو كان شاهدها، أو لقى الذين صنعوها. مثلا عندما يتحدث عن زواج حفيدة السِّيد لا يسميه زواجاً وإنما خطوبة، وهو الشىء الثابت تاريخياً، وتتضمن أشعاره أخباراً أخرى لها أصول تاريخية أيضاً، مثل هجوم السيد على كونت برشلونة رامون برنجير وأخذه سجيناً للمرة الثانية، ثم إطلاق سراحه عام ١٠٩٠، وفى صراع السيد معه فى المرة الثانية، تختفى من مسرح الأحداث، إحدى شخصيات الملحمة الرئيسية، وهو **ألبار هانييث** لأن مرافقته للسيد تنتهى تاريخياً عند عام ١٠٨٤.

أما الشاعر الآخر فقد جاء بعد الأول بزمن ، فهو غريب عن الأحداث التى وقعت فى عصر السيد، وكل ما هنالك أنه شهد أحداث خطوبة حفيدة السيد، الطفلة **بلانش** ابنة **غرسية راميريث** ملك نبرة، وولية عهده، إلى الطفل **شانجه** ولى العهد، وأكبر أولاد **ألفونسو السابع** ملك قشتالة والملقب بالإمبراطور، وكانت الخطوبة طريقاً لتسوية نزاع حاد بين قشتالة ونبرة فعقد

الصلح بينهما وبَعُد شبح الحرب وحل السلام. وزُن توطيد ذلك بمزيد من توثيق الروابط العائلية بين الأسرتين، فتزوج الملك **غرسية** نفسه من **دونيا أرّاكه، ابنة ألفونسو السابع** غير الشرعية، واحتفل بعقد الزواج بينهما فى مدينة ليون عام ١١٤٤، فى حفلات باذخة ضمت جميع ضروب اللهو التى كانت معروفة فى تلك الأيام؛ من موسيقا ومبارزة ومصارعة وغيرها. وحضرها الأمراء والأشراف والفرسان فى المملكتين، وكان لها صدى كبير فى الجانب المسيحى كله؛ وأحس به الشاعر فأراد تمجيده؛ ومن ثم عاد إلى الملحمة القديمة التى صاغها شاعر سان استبان دى غرماج، عاد إليها نصاً مكتوباً، أو ملتقطا لها من أفواه الناس؛ بعد أن تعرضت للتحوير والتحريف والزيادة والنقص، وصبها من جديد، ولكن أحداث السيد نفسه؛ وما جرى على أيامه، كانت بعيدة عنه؛ فجعل استيلاء **ألفونسو السادس** النهائى على مدينة سالم، وقد تم فى عام ١١٢٤؛ يعود إلى عصر السيد نفسه وقد توفى قبل أن يتم بخمسة وعشرين عاما. والحق أن شاعر مدينة سالم هذا إن صح التعبير، يضيف ظروفاً ووقائع جوهرية لا يرتضيها الواقع، ولا نجدها سنداً فى أى مصدر تاريخى؛ لقد تصرفَ كصاقل للملحمة، دون اهتمام بالحقيقة نفسها، وعرف كيف يُنَمّى أحداثها ويطورّها؛ ويعطيها نغماً شاعرياً؛ ومزيداً من الدرامية والجاذبية، وتفاوت إصلاحه فى أجزائها الثلاثة، فهو فى النشيد الأول الخاص بنفى السيد حذر لم يدخل عليه من التعديل إلا الشىء اليسير، بينما تناول النشيد الثانى الخاص بزواج بنتى السيد، بإصلاح أوضح مما فعل فى الأول، على حين تعرض النشيد الثالث والأخير؛ والخاص بالمبارزة؛ لكثير من التبديل والتغيير.

بقى أن نشير إلى أن هذه الاكتشافات القائمة على الموازنات التاريخية **والجغرافية واللغوية لا تمس إلا التغييرات الجوهرية والكبرى، ومن المؤكد أن**

الملحمة لحقتها إصلاحات وتعديلات وتحويرات أخرى، عبر انتقالها إلينا شفوياً، أفلتت منا، ولا يستطيع أى باحث الإمساك بها مهما بالغ فى الدرس والتدقيق.

تتكون الملحمة من **٣٧٥٣** بيتاً من الشعر، جاءت فى ثلاثة أناشيد، وكل نشيد يضم عدداً من القصائد. ويدور حول حدث محدد.

النشيد الأول يقص علينا الأحداث التى أدت إلى نفى السيد، وتتصل به وكيف أن الملك ألفونسو السادس أرسل لذريق دياث دى بيبار، الملقب بالسيد لكى يقبض الجزية من ملك أشبيلية المسلم، وكان يدفع الجزية لملك قشتالة.

وفى ذلك الوقت كان المظفر ملك غرناطة يكره المعتمد ملك أشبيلية حتى الموت، وقد تعود المظفر بمساعدة الفرسان الأغنياء القشتاليين، وعلى رأسهم الكونت غرسية أو ردونييث، وفرتون سانتشيث صهر ملك نبرة، أن يتوغلوا فى أراضى ملك أشبيلية وأن يثيروا فيها الخراب والدمار. لقد جرت العادة فى ذلك الوقت أن يرحل الفرسان المسيحيون ليقاتلوا تحت راية الملوك المسلمين، حباً فى المغامرة، أو طمعاً فى الأجر، أو منفيين من ملوكهم المسيحيين.

وكان لذريق دياث دى بيبار فى رفقة جيش مختلط من مسلمين ومسيحيين **ذاهباً إلى أشبيلية لقبض الجزية، فأرسل ينذر ملك غرناطة ومن معه من فرسان** قشتاليين أن يكفوا عن مهاجمة المعتمد، فلما لم يستجيبوا لرجائه، خرج مدافعاً **عنه، وقريباً من حصن قبرة انتصر على الكونت غرسية أوردونييث وسجنه لمدة** ثلاثة أيام، واستولى على ما معه من ثروة وأذله منتزعاً شعيرات من لحيته، وهو أقسى ما يمكن أن يتعرض له فارس من إهانة، ومن ذلك الوقت عظمت هيبة لذريق عند المسلمين فصاروا ينادونه : سيدى القنبيطور.

وعندما عاد السيد إلى قشتالة يحمل الجزية للملك ألفونسو وجد نفسه متهماً من قبل رجال البلاط الحاسدين له، بأنه احتفظ لنفسه بجزء من الأموال والهدايا التي أُرسل ليجبيها، فنفاه الملك من أرضه، وحدد له أجلا للرحيل لايتجاوز تسعة أيام.

وطبقا للتقاليد المتبعة سار معه ألبار هانييث، ابن عمه وآخرون من أسرته وتابعيه. فترك السِّيد قريةَ بيبار مسقط رأسه، وذهب ليودع زوجه وبنتيه ومازالتا طفلتين، وكن لاجئات فى دير كاردينيا، وتركهن هناك وحيدات ثم دعا الله أن يعيش حتى يزوّج بنتيه، ويقضى بعض حياته مستمتعاً بسعادة الأسرة. وحانت نهاية الموعد، فكان على السيد أن يجتزئ وداعه ليخرج من قشتالة سريعاً؛ وكان أكثر ما يشغله : كيف يستطيع فى المنفى أن يهيئ العيش لنفسه ولمن معه، وكانت أيام المنفى الأولى قاسية، وطريقه إلى النصر بطيئاً. ففكر فى خداع مرابيين يهودين فى برغش، رهنهما صندوقين مملوءين رملا، على أنهما مملؤين ذهباً، وسار فى طريقه فاستولى فى البدء على حصنى قسطلون والقصير على ضفاف نهر شلون. ثم باع إلى المسلمين أنفسهم الأرباح التى حصل عليها. وتوغل فى الأرضى الإسلامية وأصبحت كل المنطقة الممتدة من الترويل حتى سرقسطة تدفع له الجزية. ثم أرسل ألبار هانييث إلى قشتالة يحمل هدية إلى الملك ألفونسو، وتابع المنفىُّ تقدمه متخطيا جبال موريا والأرض المجاورة لها، وكانت تحت حماية كونت برشلونة، فالتقيا فى معركة انتصر فيها السيد، وأسر الكونت ثم تكرم عليه فعفا عنه بعد أن أمضى فى السجن ثلاثة أيام.

أما **النشيد الثانى** فيدور حول زواج بنتى السيد.

من نفس جبال موريا اقتحم السيد شواطئ البحر الأبيض بين قسطلون ومريطر، ثم واصل غارته حتى دانية، واستولى أخيراً على مدينة بلنسية. وأراد ملك أشبيلية المسلم أن يسترد المدينة فهزمه، ومن غنائم هذا النصر اختار السيد

مائة حصان، أرسلها مع ألبار هانيبث هدية إلى الملك ألفونسو، ولكى يرجوه أن يسمح لدونيا خيمنا أن تخرج من قشتالة وتذهب لتعيش معه فى بلنسية. وأثناء احتلال السيد للمدينة أراد أن يكتسب عواطف المسيحيين فعين على المدينة مطراناً أديبا ومحاربا يدعى دون خرونيمو.

وقد ذهب ألبار هانيبث بالهدية إلى قشتالة، وحصل على إذن من الملك يسمح لزوجة السيد وبنتيه بالذهاب إلى بلنسية، وعدن معه فاستقبلهن السيد فى بهجه بالغة، ومن شرفات القصر أخذ يعرض عليهن امتداد المدينة التى استولى عليها، وثراء بساتينها. ولما حاول **يوسف بن تاشفين** ملك مراكش أن يسترد بلنسية هزمه السيد أيضا. ومن الغنائم الهائلة لهذه المعركة أرسل السيد مائتى حصان هدية أخرى إلى ألفونسو، وكان رسوله ألبار هانيبث للمرة الثالثة. وقد أحدثت هدايا السيد الهائلة والمتكررة إلى الملك دوياً فى قشتالة، وإعجابا عظيما بالبطل المنفى، ولكنها فى الوقت نفسه عمقت حسد الكونت غرسية أوردونييث، المهزوم فى قبرة، وفى نفس الوقت أثارت نهم بعض أقرباء الكونت، وبخاصة أميرى كاريون، ففكرا فى الزواج من بنتى السيد فاتح بلنسية لكى يصبحا من كبار الأغنياء. ورأى الملك أن هذا الزواج مما يشرف السيد، فاقترح على ألبار هانيبث أن يحمل الفكرة إليه. وتلاقى الملك والسيد على ضفاف نهر تاجه، وهناك عفا الملك عن السيد، وألغى قرار النفى، ووافق السيد على زواج بنتيه من أميرى كاريون، ورغم أن الزهو الأسرى للأميرين كان يجرح مشاعره، لم يرد أن يرفض للملك طلبا، ثم عاد السيد مع الأميرين صهريه إلى بلنسية، وفيها تم الزواج.

ويدور **النشيد الثالث** عن الصراع بين السيد وصهريه.

فى المعركة التى جرت بين السيد وبو بكر ملك مراكش؛ أظهر أميرا

كاريون جبنا كبيراً. وعندما انتصر السيد أحس بما آل إليه أمره من عظمة وسؤدد، ولم يعد ذلك المنفى الغلبان كما كان قبلا؛ إنه الآن غنى وقوى ومخيف وفكر فى أن يجعل المغرب كله يدفع له الجزية، بل وبدا مزهوا بصهريه متناسيا جبنهم، ولكنهما أصبحا هدفا لسخرية قاسية ممن حولهم؛ فلم يستطيعا الصبر وفكرا فى أن ينتقما من السيد فى شخص بنتيه، فطلبا إذنه بالذهاب إلى مدينتهما كاريون مع زوجتيهما، ولم يدر بخلد السيد أنهما يضمران لبنتيه سوءا فأذن لهما، وحمّلهما الغالى من الهدايا، وأحسّ وهو يودع بنتيه بشىء ما فى أعماقه؛ هواجس تحركت فى خاطره تحدثه بشىء قادم.

بدأ الأميران رحلتهما، وعندما دخلا أرض قشتالة، فى غابات كوربس الكثيفة جلدا زوجتيهما بقسوة، وتركاهما نصف ميتتين. وعندما علم السيد بهذا العمل الخسيس أرسل ألبار هانييث لكى يعود ببنتيه، وأرسل إلى الملك ألفونسو يطلب منه التحقيق والمحاكمة: «إن الملك هو الذى زوّج بنتىّ، وكل مامس شرف هو من جانب سيدى» وتألم الملك فدعا بلاطه فى طليطلة، فذهب إليه الأميران مزهوين، وفى عصبة قوية من أقاربهما، على رأسها الكونت غرسية أوردونييث، عدو السيد القديم، وكان هذا الكونت آخر من وصل إلى الاجتماع. وعندما افتتح مجلس البلاط عرض السيد ما لحق ببنتيه، طالبا من الأميرين أن يعيدا إليه مما أهداهما السيفين الثمينين «تيشون» و «كولادا»، ثم «الدوطة» التى دفعتها بناته. وأن يسترد شرفه منهما فى ساحة المبارزة. وعبثا حاول الأميران الدفاع عن موقفهما، محتقرين السيد وبنتيه، وأنه مجرد إنسان يحاول أن يصبح أميراً صغيراً، وبناته ليستا أهلا لتكونا زوجتين لأميرين من كاريون. ورد السيد على الكونت غرسية يذكره بحبسه إياه فى قبرة. أما الأميران فلايشرفه أن يرد عليهما، فتولى أقرباء السيّد الرد نيابة عنه، وأظهروا ما اتصف به الأميران من خيانة وجبن وفى هذا الوقت يدخل إلى مجلس البلاط رسولان

يطلبان بنتي السِّيد زوجتين لأميرى نبرة وأرجون، حيث تصبحان ملكتين، ووافق الملك على هذا الزواج المشرف، ثم يعود الحديث إلى ما كان عليه، ويطلب السيد أن تتم المبارزة فى أرضها فى وادى كاربون، وانتصر السيد على الأميرين، وأعلن خيانتهما، وكان هذا الزواج الثانى أكثر شرفاً من الأول، لأن ملوك إسبانيا أصبحوا من سلالة البطل ابن بيار.

● ● ●

تلك هى أقسام الملحمة، وكلها تدور حول السيد ومغامراته وانتصاراته والسيد شخصية تاريخية ،وهو فى التاريخ يختلف عنه فى الملحمة، وقبل أن نعرض له كما صوّره الشاعر، أود أن أقدم له صورة تاريخية، وكلا الصورتين تكمل الأخرى.

obeikandl.com

السيد فى التاريخ

لا نعرف شيئاً كثيراً عن طفولة **رودريجو دياث**، والذى سيدخل التاريخ تحت اسم **السيد القنبيطور**، ويرجح أنه ولد قريباً من عام ١٠٤٥ فى قرية **بيبار** على بعد تسعة كيلو مترات شمالى مدينة برغش، مكان مهجور فى الهضبة القشتالية، تكتنفه طبيعة قاسية لا نظير لها فى جلاها، والحياة فى هذه البقاع قاسية على السكان الذين اعتادوا منذ حداثتهم أن يعيشوا عيشة معدومة اليسر، مليئة بمظاهر الحرمان. وينحدر والده **دييجو لاينيث** من أسرة قشتالية قديمة، من سلالة القاضى **لاين كالبو**، يعيش حياة مستورة منعزلا فى ضياعه الفقيرة، أما أمه، ولا نعرف اسمها، فكانت تنحدر من سلالة نبيلة أيضاً، فأبوها **رودريجو ألبارث** سيد كبير النفوذ، يمتلك إقطاعيات واسعة فى وادى « دويره » وقد اشترك فى ميعة شبابه مع دييجو لاينيث فى حملات ضد مملكة نبرّة العربية لحساب ملك ليون، فرناندو الأول.

ويبدو أن والد السيد تُوفى عام ١٠٥٨، ولما يزل الابن غلاما يافعا، فضمه إليه **شانجهُ**، الابن الأكبر للملك **فرناندو**، وأشرف على تربيته وتثقيفه، ثم قلده السيف، وخلع عليه شارة الفروسية، وجعله فى حماه، وصحبه معه فى أول حملة حربية قام بها. ففى ربيع عام ١٠٦٣م، حاول **راميرو** الأول ملك أرجون، وعم الأمير شانجه، أن يستولى على مدينة جراوس، وكانت فى حوزة **المقتدر** بن هود ملك سرقسطة، فأرسل هذا إلى حليفه **فرناندو الأول** ملك قشتالة يطلب العون، فأمده بجيش يقوده الأمير شانجهْ، وبين صفوفه رودريجو دى بيبار، وقد انتصر المقتدر ومعه القشتاليون؛ وقُتل فى المعركة الملك راميرو، وهكذا نرى أن السّيد شهر سلاحه أول ما شهره، وهو فى صفوف

الجيش الإسلامى، أثناء مدافعته الأندلسيين المسيحيين.

وعندما تُوفى **فرناندو الأول** ملك قشتالة وليون عام ١٠٦٥م. قسّم مملكته بين أبنائه، على نحو تنقصه الحنكة السياسية، فكانت قشتالة من نصيب أكبر أبنائه **شانجه** - صديق السيد وحاميه - وكان للثانى **ألفونسو السادس** مملكة ليون، وللثالث **غرسية** مملكة جليقية، وأقطع ابنتيه **أرّاكة وإلبيرة** الأديرة الغنية. فأدت هذه القسمة الجائرة إلى حرب طاحنة بين الأشقاء. كان شانجه ملك قشتالة يضطرم بغضاً لأنه، وهو أكبر إخوته، لم يضع يده على مملكة أبيه كلها، فحاول بدءا أن ينتزع من ابنى عمه شانجه ملك نبرة، وشانجه ملك أرجون، بعض المدن فأخفق. فانقلب إلى مقاتلة أخويه ألفونسو وغرسية، ونشبت بين الفريقين حرب ضروس على امتداد ثلاثة أعوام، خرّبت وديان ليون وقشتالة، وقد تمكن من أن يزيل أخاه ملك جليقية عن عرشه، وبعده تحوّل إلى ألفونسو السادس، والتقى الاثنان فى معركة فاصلة فى جلبخيرة، قريبا من حصن كاريون دى لوس كوندس، وقد تفوّق ألفونسو فى بدء المعركة، وأوشك أن ينتصر، لكن حرصه على حقن الدماء حال دون تمتعه بثمرات نصره، فعف عن مطاردة جيش شانجه الفار، وترك جنده يحتفلون بالنصر دون تحوّط، ووثق فى كلمة أخيه من الاكتفاء بما حدث. وقد تدخلَ السّيد فى اللحظة الحاسمة، فنصح الملك شانجه بأن يجمع بقايا جيشه الممزق، وأن يعيد تنظيمه، ويستغل فرحة جند أخيه بالنصر، وانشغالهم بالغنائم، واستسلامهم إلى نوم مطمئن، ثم ينقض عليهم فجراً. فعمل الملك بنصيحة السّيد، وتحقق له النصر، وقد أفلت الملك ألفونسو من الموت ولكنه وقع فى الأسر، وأبقى شانجه على حياته، وزج به فى ظلمات دير قريب من برغش، إلى أن دبرت أخته أراكة فراره، فالتجأ إلى ابن ذى النون صاحب طليطلة، وهكذا ضم شانجه ملك قشتالة ليون إلى

مملكته، وكافأ السيد على نصحه، فعينه فارسا له، أى حامل لوائه ، وقائد جيوشه.

لكن الأمور لم تجر على النحو الذى أراده شانجه، فقد دبرت أخته **أراكة** ثورة ضده، بمعاونة **بدور أنسوريث**، وهو شيخ كان يؤدب **ألفونسو السادس**، ولكى يواجه شانجه الموقف حاصر مركز الثورة فى حصن سمورة بنفسه، وبذل المحاصرون جهدا كبيراً لفك الحصار، ثم تحيروا من بينهم فارسا شجاعاً هو **بيّيدو أدلفو** لكى يخرج ويوغل فى محلة المحاصرين، وهكذا استطاع أن يفاجئ الملك، وأن يطعنه برمح فشق صدره، وأرداه قتيلا فى ٧ من أكتوبر عام ١٠٧٢، ففقد السيد بموته سيده وراعيه، ولقد حاول أن يلحق بالقاتل، فانطلق فى إثره، ولكنه احتمى منه بالمدينة بعد أن أغلق الأبواب بعده، وفى الحال ارتد الجيش المحاصر، وبادرت أراكة فأرسلت إلى ألفونسو فى طليطلة لكى يعود سريعاً، ولقى حين عودته اعترافاً تاماً بحقوقه الملكية فى ليون، ولكنه واجه صعاب فى قشتالة، وفى الأراضى التى كانت تابعة لمملكة نبرة، فقد اشترطت لكى يلى ألفونسو العرش أن يقسم فى حفل رسمى أنه برىء من دم **شانجه الثانى**، فنزل عند إرادتهم على ما فيها من شطط، وتم ذلك آخر عام ١٠٧٢ م فى كنيسة سانتا جاديا فى برغش، وكانت اجتماعات القَسَم تجرى فيها عادة.

وقد أحجم أمراء قشتالة عن التقدمّ لتلقين الملك صيغة القسم، ولم يجرؤ على ذلك غير السيد، فارس الملك القتيل، وجعل الملك ألفونسو يردد صيغة القسم المهين مرتين، ولم يغفر له الملك قط جرأته هذه ، وبعدها فقد لقبه كفارس ملكى، وأصبح مجردّ تابع عادى كآلاف الرعايا، بينما أصبح **بدرو أنسوريث** المؤدب القديم للملك، **وغرسية أوردونييث**، الشاب القشتالى النبيل، ومن ألد خصوم السيد، أكثر المستشارين قربا إلى الملك ألفونسو.

لكن الملك مالبث أن أظهر تقديره للسيِّد عندما بحث له عن زوجة من بين طبقة الأشراف، تحقيقاً لإحدى واجبات الملك الأساسية حيال تابعه، فاختار له فتاة من نبلاء أشتورية، هى **دونيا خيمينا دياث**، ابنة دييجو رودريجيث، كونت مدينة أو بييدو، والحفيدة الصغرى لألفونسو الخامس ملك ليون، وابنة عم الملك ألفونسو السادس الجالس على العرش، وقد أهدى السيد خطيبته أراضى من أملاكه فى قشتالة، وتحمل اهبة تاريخ ١٩ يسولية ١٠٧٤م، وهو التاريخ الذى تم فيه الزواج على ما يرجح، وكانت سن السيد إذ ذاك قريباً من واحد وثلاثين عاماً. وما من شك أن الملك هدف بهذا الزواج إلى المصالحة بين طبقة الأشراف فى كل من قشتالة وليون، حتى أنه جعل شاهدى العقد بدرو أنسوريث، وغرسية أوردو نييث حصنى السيد، وتأكيداً لهذا العمل توجه ألفونسو إلى مدينة أو بييدو حاجاً، وبها كتدرائية سان سلفادور، أجل مكان دينى بعد كنيسة شنت يعقوب فى جليقية، ولم يصحب معه من كبار الشخصيات القشتالية التى حوله غير اثنين، مطران برغش والسيد. وعندما عاد الملك إلى برغش أول مايو ١٠٧٥ أصدر أمره بإعفاء أملاك السيد، ثم خلفائه من بعده، من أية ضرائب أو غرائم تجبى حالياً، أو تفرض مستقبلا.

فى ذلك الوقت كانت مملكتا **طليطلة وإشبيلية** الإسلاميتان تؤديان الجزية لمملكة قشتالة المسيحية بمقتضى معاهدة قديمة، وفى كل عام تفد عليها سفارة من قشتالة أو ليون لتتلقى منها الجزية، وقد اختار **ألفونسو** السيد عام ١٠٧٩ ليرأس الوفد المتوجه إلى إشبيلية ليقبض الجزية من ملكها **المعتمد بن عباد**، ولقد وصل السيد فى ظرف غير مناسب؛ فقد وجد المعتمد فى حرب صريحة مع **عبد الله بن زيرى** ملك غرناطة، وكان بدوره يدفع الجزية لألفونسو ملك قشتالة، ويضم جيشه نسبة كبيرة من المسيحيين الأندلسيين،

لعل الملك القشتالى أرسلهم إليه ليقيم توازناً بين الجيوش الإسلامية المتعادية فى جنوب شبه الجزيرة ، وليحد من أطماع المعتمد ملك إشبيلية، وكان يرنو ببصره إلى ما حوله من إمارات صغيرة يريد أن يوسع بها رقعة مملكته، وكان على رأس الجنود القشتاليين الذى كانوا فى خدمة ملك غرناطة الكونت غرسية أوردونييث، خصم السيد ومنافسه اللدود.

ولقد وجد السيد الفرصة مواتية ليلتقى مع خصمه أوردونييث فى معركة، فأرسل إلى ملك غرناطة يحذره ومن معه من أغنياء القشتاليين من الهجوم على مملكة إشبيلية لأن صاحبها مشمول بحماية ملك قشتالة، ولكن هؤلاء استهانة بجيش المعتمد، وبالسيد ومن معه من قوات صغيرة، ردوًا على إنذار السيد بالهجوم فعلا على مملكة إشبيلية، وهكذا نشبت المعركة قريباً من مدينة قبرة، بين قوات الفريقين، وكل جيش منهما يتكون من جنود مسلمين ومسيحيين، ولقد هُزِمَ جيش غرناطة، وانتصر جيش إشبيلية بفضل السيد والقلة التى معه، وأسروا كثيرين، بينهم عدد كبير من نبلاء المسيحيين، على رأسهم **غرسية أوردونييث** نفسه، وظلوا فى الأسر ثلاثة أيام، أطلق السِّيد بعدها سراحهم، فعادوا إلى برغش أذلاء مقهورين، أما السيد فقد دخل إشبيلية منتصراً، وتلقى من **المعتمد** الجزية، وهدايا أخرى كثيرة، ثم عاد بعدها إلى برغش عاصمة قشتالة فوصلها فى مايو عام ١٠٨٠م.

لم يقع إذلال **غرسية أوردونييث** من الملك موقع الرضا، كما أن انتصار السيد أثار الغيرة والحسد فى نفوس كثيرة ، بين حاشية الملك ورجال البلاط، وبين أقارب السيد نفسه، وهكذا اتُّهِم، بالحق أو الباطل، بأنه استولى لنفسه على جزء من الهدايا التى كان يجب أن يقدمها للإمبراطور، ولم يستطع الملك أن يصم أذنيه عن تحريض بطانته، ولم ينس له القسم المذِل الذى أجبره يوماً على

أن يقدمه بين يديه، ولكنه انتظر الفرصة المواتية، وسرعان ما جاءته. فبينما **ألفونسو** على الحدود الجنوبية لمملكة قشتالة مشغولاً بمناوشة مملكة "طليطلة" نُمي إلى السيد وقد تخلف في برغش مريضاً أن فريقاً من المسلمين شنّوا هجوماً موفقاً على حصن عرماج القشتالي على خط نهر دويره، واستولوا على غنائم كبيرة، فقام بهجوم مضاد دون أن يرجع إلى الملك، وعاد ومعه غنائم وأسرى كثيرون. فصوّر نبلاء قشتالة مسلك السيد على أنه خروج على طاعة الملك، وأذعن ألفونسو السادس لقولهم، وأبلغ السيد عام ١٨٠١ بأنه منفي من بلاده.

● ● ●

كان هذا النفي نقطة تحوّل هامة في حياة **السِّيد**، ومصدر أقاصيص وأساطير بعيدة عن الحقيقة، منها الملحمة التي هي موضع الترجمة والدراسة. والحكم بنفي النبلاء كان أمراً شائعاً في أوربا في العصر الوسيط، وفي الأندلس بجانبيه الإسلامي والمسيحي، على نحو مختلف بين الجانبين، فلم يكن ثمة نبلاء في الجانب الإسلامي، ولكننا نعرف أن الحكم الأول نفى جمهرة كبيرة من القرطبيين عقب فتنة الربض الشهيرة، وكان المنفيّ في الجانب المسيحي يحتفظ ببعض الحقوق التي لا يمكن تجريده منها، فلا تصادر أراضيه إذا لم يكن قد اقترف جريمة تتعلق بالشرف، وله الحق في أن يصحب معه أقرباءه وجنده وفرسانه، وهكذا سلك **لذريق** طريقه نحو شرق الأندلس، مطروداً من قشتالة، على رأس فرقة تضم ثلاثمائة فارس تقريباً، ليظفر بلقمة العيش في أرض غريبة على حد التعبير العرفي القديم، يقاتل بجماعته، أحياناً في حماية أمير مسلم ولحسابه، وأحياناً لحسابه الخاص.

اتجه أولا إلى **برشلونة** حيث يحكم الأخوان الكونت رامون الثاني، والكونت بيرنجر الثاني، فلم يجد منهما ترحيباً، فمضى إلى **المقتدر** بن هود ملك

سرقسطة، فوجد عنده من الترحيب مالم يجد عند أميرى برشلونة، لكن المقتدر مات فى نفس العام، أكتوبر ١٠٨١م، بعد أن قسّم أملاكه بين ولديه، فكان نصيب **المؤتمن** مدينة سرقسطة وما والاها وورث **المنذر** دانية وطرطوشة ولاردة، وما لبث الشقاق أن وقع بين الأخوين، فاستمر **السِّيد** فى خدمة المؤتمن الأخ الأكبر، وطلب الثانى العون من **كونت برشلونة**، ومن **شانجه رامیریث** ملك أرجون، وهكذا وجد السِّيد نفسه مضطرًا إلى محاربة الأرجونيين والقطلونيين فى آن واحد لحساب ملك سرقسطة المسلم، ومن حين لآخر كان يقوم بالإغارة على أراضيهما، ثم التقى الفريقان لمعركة فاصلة عند حصن المنارة على بعد ٢٠ ك.م من مدينة لاردة، ووراء هذا الخطر وسَّع **المنذر** دائرة تحالفه مع الأمراء المسيحيين، فأمدوه كتيبة بن بعينه من جيوش وضربوا حصارا قويا حول السيد ومن معه، فأرسل هذا يطلب العون من **المؤتمن**، فجاء بنفسه إليهم، وكان **السيد** يائسا من النصر، فطلب من المؤتمن ألا يغامر بالقتال، وأن يدفع الجزية لأخيه وحلفائه، ولكن **المنذر** رفض العرض مزهوا، فأحس السيد بأنه قد جُرح فى كبريائه، ولم يجد أمامه غير القتال، فاقتحم المعركة على الرغم من قلة قواته، وكان النصر حليفه، فأسر كونت برشلونة، وظفر بغنائم هائلة، وبعد خمسة أيام ردّ للكونت حريته، ثم دخل سرقسطة فاستُقْبِل فيها استقبال الظافرين، وأغرقه المؤتمن بالهدايا، وخلع عليه مراتب الشرف، وظفر بين جنود المؤتمن بمكانة ونفوذ كبيرين.

بعد موت المقتدر بقليل تمرد حاكم روطة، حصن هام من أملاك بنى هود على ضفة نهر شلون، ويبعد ٣٥ك.م. من سرقسطة العاصمة، وطلب مساعدة ألفونسو، الذى وجد الفرصة سانحة ليرد على السِّيد وعلى المؤتمن فى نفس الوقت، فأرسل حملة كبيرة على رأسها أمير نبرّة، وحاكم قشتالة، وفى أثناء ذلك توفى المظفر صاحب لاردة، وكان أخوه قد سجنه فيها، فأثر حاكم روطة أن

يعود إلى حظيرة **المؤتمن**، وأرسل إليه سراً بما نوى، وأنه سوف يغرر بأعدائه من القشتاليين، ومن ثم أخبر قادة الجيش القشتالى القادم لمساعدته، أنه يوّد أن يسلم لهم الحصن، وللملك ألفونسو شخصياً، وقد جاء الملك فعلا، ولكنه كان يشك فيما يهدف إليه القائد، فترك كبار قادته يدخلون أولا، فوقعوا فى الفخ وقتلوا جميعاً، وهزّت المذبحة ألفونسو فعاد إلى برغش حزيناً. ولما علم السيد بالمكيدة خشى أن يقحمه أعداؤه فى هذه المشكلة، فسارع إلى قشتالة لتبرئة نفسه، وليقنع الملك بأنه لا صلة له إطلاقا بمؤامرة حاكم روطة. وحاول فى نفس الوقت أن يعود فيصبح من تابعيه، فقابله ألفونسو بفتور، وأدرك السيد أن الملك مازال يحقد عليه، فعاد إلى سرقسطة يقدم خدماته للملك المؤتمن من جديد.

خرج **السيد** القنبيطور مع **المؤتمن**، وأغارا على أرض ملك أرجون، وانطلق رجالهم عبرها يدمّرون ويخربون على امتداد خمسة أيام ،عادوا بعدها محملين بالأسرى والغنائم إلى حصن Monzon ، دون أن يجرؤ الملك **شانجه رامیریث** على أن يتعرض لهم مقاوما. كذلك قام السّيد، لحساب المؤتمن، بإغارات كثيرة على لاردة مملكة أخيه **المنذر**، وعلى نحو خاص فى منطقة مورلّة الجبلية العالية، ذات الطرق الصعبة، والمداخل الوعرة، وأتى السّيد على ما فيها من بيوت وحيوان وثروات، وحاصر مورلة نفسها، ولما ضاق الحال بالمنذر زار الملك شانجه، ليجدد معه الصداقة التى كانت قائمة بينهما، ويطلب عونه إزاء الخطر الذى يتعرض له، وعقدا محالفة للدفاع عن أراضيهما، ثم جمعا جيشيهما وعسكرا على ضفاف نهر إبره. وأرسل ملك أرجون إلى السّيد يتوعده، وينذره بأن يخرج سريعاً من أرض الحاجب، فسخر منه السيد قائلا : إذا كان ملك أرجون يطلب الحماية ليعود بسلام عبر الأرض التى نسيطر عليها، فسوف أتولى حراسته مسروراً. وأقدم له، إذا رغب، مائة من فرسان يرافقونه

فى رحلته، فغضب الملك شانجه من هذا الرد، وبدأت المعركة، فالتقى الجيشان فى ١٤ أغسطس ١٠٨٤، وامتد القتال لساعات وفى النهاية هرب ملك أرجون وحليفه المنذر، ولاحقهما السِّيد لمسافة طويلة، وأسر منهم ألفين، بينهم عدد من كبار رجال البلاط، ولكنه أطلق سراحهم بعد ذلك ما عدا ستة عشر من كبار القواد والشخصيات حملهم معه، وكان بينهم مطران روطة، وشقيق الملك شانجه، واستولى على غنائم وفيرة، وعاد بذلك كله إلى سرقسطة، فاستقبله المؤتمن مع أبنائه وكبار وزرائه، وجمع غفير من سكان العاصمة وماحولها رجالا ونساء، وخرج الناس إلى ما بعد المدينة بأربعة أميال فى انتظاره، وقد أطلق سراح الستة عشر أسيراً بعد ذلك فى ظروف لا يحفظها لنا التاريخ. وظل **السِّيد** فى سرقسطة إلى أن توفى **المؤتمن فى عام ١٠٨٥، فانتقل إلى خدمة ابنه و خليفته أحمد المستعين**؛ ولكن تعوزنا التفاصيل عن الحملات التى قام بها ابتداء من عام ١٠٨٥ حتى ١٠٨٨م، ويبدو أن شهرة **ألفونسو** وقد استطاع أن يستولى على طليطلة فى ٦ مايو ١٠٨٥، حجبت شهرة السِّيد تماماً، لأن هذا السقوط كان أهم حدث فى التاريخ الأندلسى فى العصر الوسيط، فأحدث دويًّا هائلاً، وأدى إلى نتائج خطيرة، فى الجانبين الإسلامى والمسيحى على السواء.

وفى بلنسية قام حفيد صغير للمنصور بن أبى عامر، يُدعى **عبد العزيز ويلقَّب نفسه بالمنصور**، بتأسيس إمارة مستقلة عام ٤١١هـ- ١٠٢١م حكمها على امتداد أربعين عاما، وأورثها من بعده ابنه **عبد الملك الملقب بالمظفر**؛ فى يناير ١٠٦١م. ولكن عبد الملك كان ضعيفا، فخلعه صهره **المأمون بن يحيى بن إسماعيل بن ذى النون** صاحب طليطلة، بعد أن

تمالأ مع **أبي بكر بن عبد العزيز** وزير المظفر الأول، وضُمَّت بلنسية إلى مملكة طليطلة عام ١٠٦٥؛ وكافأ المأمون أبا بكر فعيَّنه حاكما عليها، تعويضاً له عن تأييده. وعندما توفى المأمون فى عام ١٠٧٤، وتولى مكانه حفيده **القادر**، وكان يتسم بالعجز البالغ، أعلن أبو بكر بن عبد العزيز استقلال بلنسية، وطلب حماية ألفونسو السادس ملك قشتالة، مقابل جزية سنوية يدفعها له. لكن **ألفونسو** لم يكن يتردد فى أن يبيع حلفاءه ودولهم إذا وجد نفسه محتاجاً إلى المال، وهكذا قرر خلال عام ١٠٧٦ أن يبيع بلنسية إلى **المقتدر** أمير سرقسطة بعشرة آلاف قطعة من الذهب، وتحرك بجيشه نحوها ليحررها من أبى بكر ويسلمها للمقتدر، وعندما أحس ابن عبد العزيز أنه عاجز عن الدفاع عنها؛ خرج بنفسه وحيداً، بلا حرس ولا جيش ولا سلاح للقاء ألفونسو، **وعرف كيف يكون بليغا ومقنعا، وأن يكون صدى بلاغته أعلى أثراً من رنين الذهب وعدّه، فجعل ألفونسو يتخلى عن مشروعه، وينقض اتفاقه مع المقتدر، ويبقى على بلنسية حاكما.**

وعاد **ألفونسو** فباع بلنسية من جديد، باعها فى هذه المرة للقادر بن ذى النون ملك طليطلة، بزعم أنه ساعده فى حروبه مع أعدائه، وكان القادر شحيحا على ما يملك من ثروات طائلة، ورعاياه مفلسون جائعون أرهقتهم مطالب الجزية والضرائب والحصار، فطمع ألفونسو فى ثمن من نسوع آخر؛ لا يكلف القادر شيئا، ويكلفه كل شىء، أن يتنازل له عن طليطلة، مدينة الملوك المتكبرة، وعاصمة القوط العتيقة، وكان أصلا يخطط للاستيلاء عليها، وربما دس على القادر من يشير عليه بهذا الرأى، فعرض **القادر** عليه أن يتخلى له عن طليطلة، مقابل أن يساعده فى الاستيلاء على بلنسية، غير أن ذلك وحده لم يكن كافيا، كان لابد أن يصير ألفونسو سيد المدينة والقابض على زمامها فعلا، وهكذا ضرب عليها الحصار فى نهاية صيف ١٠٨٤م، وأقام

مقر قيادته أمام المدينة، فى القصر الرائع الذى كان **المأمون** قد بناه، وعبثا حاول أهل طليطلة طلب الغوث من ملوك المسلمين فى شبه الجزيرة، فقد ظن هؤلاء أن المدينة قد سقطت، وهم فى جملتهم كانوا يؤدون الجزية لملك قشتالة، وفى ٢ من مايو سنة ١٠٨٥م، اجتاز وفد من أشرافهم قنطرة نهر تاجه؛ يسألون ألفونسو شروطه، ويطلبون الضمانات الكافية لتأمين أهل طليطلة المسلمين، وبعد ثلاثة أيام دخل ألفونسو المدينة، وما لبث أن تنكر لكل الشروط التى عاهد المسلمين عليها[1].

وبعد أن استولى **ألفونسو** على طليطلة أخذ فى تمكين **القادر** من استرداد بلنسية، فباسمه يستطيع أن يصبح الحاكم الفعلى على شرق الأندلس كله فخرج القادر قاصداً بلنسية فى آله وصحبه ومجوهراته، وأعرضت عنه كل القلاع الإسلامية التى كان يحكمها ومرّ بها فى طريقه بغضا واحتقاراً، وأوصدت أبوابها دونه، ما عدا قلعة قونقة، فقد رحب به صاحبها **ابن الفرج** ونزل القادر عنده حتى يستجلى الأمر، وبعث بابن الفرج إلى بلنسية، ليداخل حاكمها **عثمان ابن عبد العزيز**، فوجد الرأى فيها موزّعا، جماعة تؤثر أن تنضوى بلنسية تحت حماية **المستعين** ملك سرقسطة، وأخرى تميل إلى القادر، وأصبحت المدينة نهباً للفرقة والفوضى، فعاد ابن الفرج إلى القادر

---

(١) موجز هذه الشروط: المحافظة على حياة مسلمى طليطلة وحياة نسائهم وأطفالهم، وألا يلحقهم ضرر فى أملاكهم، وأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالخروج، ومن يريد أن يبقى بالبقاء، والذين يبقون لا يطلب منهم أكثر من دفع ضريبة الرأس لهم ولأسرهم، وكل مهاجر يمكنه أن يعود فى الحال ويستعيد أملاكه مهما عظمت قيمتها، وأن يبقى جامعهم الكبير لهم، وأن تكفل لهم حرية الشعائر الدينية. وكتاب الاكتفاء لابن الكردبوس هو المصدر الوحيد الذى أورد هذه الشروط، وقد نشر دوزى صفحات منه فى كتابه عن بنى عباد، الجزء الثانى، ص ١٨، ١٩.

ونشر المعهد المصرى فى مدريد هذه القطعة، مع قطعة من نص آخر لابن الشباط، بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى عام ١٩٧١.

يستحثه على انتهاب الفرصة. فسار القادر إلى بلنسية فى حراسة سرية قوية من الجنود المسيحيين، بقيادة **ألبار هانيبث**، فلما وصل ركبه إلى مشارف المدينة تشاور أهلها فى الأمر، ورأوا، حقنا للدماء وجمعاً للكلمة، أن يقبلوه باعتباره صاحب الولاية الشرعية من قبل، وأعلنوا خلع عثمان بن عبد العزيز، فدخلها القادر بين مظاهر حافلة، لم تكن ترحيبا بقدر ما كانت خوفا من الجند الذين حوله، يكسوهم الحديد، وتلمع سيوفهم تحت أشعة الشمس، وتسلم القصر من القاضى **ابن لبون**، ونزل فرسانه فى بيوت المدينة، واحتل ألبار هانيبث وجنده المسيحيون ضاحية الرصافة، وكان ذلك فى شهر فبراير من عام ١٠٨٦م.

وهكذا استولى **القادر** على بلنسية، وقامت دولة بنى ذى النون مرة أخرى فى شرق الأندلس، دولة ضعيفة تدين بوجودها لملك قشتالة، وتعيش فى حماية الجند المسيحين. وما لبث القادر الضعيف الخانع أن تحوّل إلى طاغية، وثقلت وطأة القشتاليين على الناس، وأرهقوهم بمؤنهم ومغارمهم، وتُكلف يومياً ما قيمته ستمائة قطعة من الذهب، وجار على المدينة بالضرائب الفادحة، وتوسل إليه السكان أن يتخلص من هؤلاء الجند، لأنهم سيكونون أوفياء له من غير سلاح، فلم يثق فى رعاياه، ولم تعد الضرائب كافية لمواجهة نفقات الجنود المسيحيين وروائبهم، ففرض مغارم باهظة على كبار الأغنياء من المسلمين ومن اليهود، وفقد الناس ثقتهم فى المستقبل، وأخذوا يهاجرون جماعات، وفقدت الأرض قيمتها، ولم يُقبل أحد على شرائها، وساءت الحالة الاقتصادية. وعندما تأخرت روائب الجند سجن قائدُهم **ألبار هانيبث** القادرَ حتى يدفع لهم ما تبق، فعرض عليهم أن يستقروا فى مملكة بلنسية، وأن يقطعهم عوض روائبهم ضياعاً واسعة، فقلبوا عرضه، واستولوا على أرضه، واستخدموا الرقيق فى زرعها، وكوّنوا منها ومن الإغارة على المقاطعات التى حولها ثروات هائلة وتضخم عددهم ونمت قوّتهم،

وانضمت إليهم جماهير غفيرة من أراذل الناس، والمحرومين والأرقاء والعاطلين، والهاربين من العدالة؛ والمرتدين عن الإسلام، وكوّنوا عصابات مرعبة، نالت شهرة محزنة، وراحت تعيث فى الأرض فساداً، فكانوا يمثلون بالرجال، وينتهكون الأعراض، ووصل بهم الأمر أن يبيعوا الأسير المسلم برغيف خبز، أو كأس من النبيذ، أو رطل من السمك، ومن لم يستطيع أن يفدى نفسه، أو لم يقبل، قطعوا لسانه، أو فقأوا عينيه، أو قدموه طعاماً للكلاب.

وخلال ذلك كانت تجرى فى جنوب شبه الجزيرة أحداث ذات أهمية قصوى، فقد عبر المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، فى أغسطس ١٠٨٦ لرد عادية مسيحيى الشمال بعد استيلاء **ألفونسو السادس** على طليطلة، فأخذ ملك قشتالة يجمع الجند من كل ناحية لدفع هذا السيل المتدفق من جند المسلمين، وغادر **ألبار هانييث** وجنده مدينة بلنسية، وقُدِّر للجيوش الإسلامية أن تنتصر على الجيوش المسيحية فى معركة الزلاقة الشهيرة، فى أكتوبر ١٠٨٦م، وقد سرّ أهل بلنسية لرحيل القشتاليين عنهم، وتنفسوا الصعداء لهزيمة ألفونسو، وسارع **القادر**، كبقية ملوك الطوائف المسلمين يلتمس صداقة أمير المرابطين، ولكن هذا كان فى شغل عن شرق الأندلس، وطمع جيران القادر فى مملكته، فكان **المنذر** صاحب لاردة يتحين الفرصة للاستيلاء على بلنسية، فسار إليها ومعه سرية من مرتزقة المسيحيين القطلونيين، وضرب الحصار حولها عام ١٠٨٨م، وكان له داخلها أنصار يؤيدونه، فاستولى الذعر على القادر، وهم بتسليم المدينة، لولا أن **ابن طاهر** صاحب مدينة مرسية السابق نصحه بالتريث، وشجعه على الصمود. وأرسل القادر إلى **ألفونسو** ملك قشتالة يطلب عونه، وإلى **المستعين** صاحب

سرقسطة، وكان المستعين يتوق إلى افتتاح بلنسية، ويشعر بالأسى لفشل محاولة قام بها أبوه من قبل، وكان **السيد القنبيطور** لا يفتأ يحث المستعين على تحقيق هذا الهدف، فلما تلقى صريخ القادر، وجد أمامه الفرصة سانحة، فهرع إليه فى بعض قواته، يريد إنجاده ظاهراً، ويضمر الاستيلاء على المدينة باطناً، ولم يسر إليه وحده وإنما صحبه جيش آخر يقوده صديق المستعين وحليفه، **وصديق أبيه المؤتمن، وجده المقتدر من قبل**، وكان هذا القائد هو السيد القنبيطور.

وثمة رواية خلاصتها أن **المستعين والسيد** عقدا ميثاقاً سرياً على غزو بلنسية واجتياحها، على أن تكون الغنائم كلها من نصيب السيد وجنوده، وأن تصبح المدينة للمستعين، وهناك رواية أخرى تشير إلى أن المستعين صحب السيد فى تحركه نحو بلنسية، بحجة الاستجابة لصريخ **القادر**، دون أن يفضى إليه بنيته فى الاستيلاء على المدينة، وقدم إليه أموالا طائلة كى يحشد القوات اللازمة. فتولى السيد جمع الجنود، وانثالوا عليه من كل جانب للعمل تحت رايته، مسلمين ومسيحيين، فاجتمع له منهم، فيما يقول **ابن علقمة** مؤرخ مأساة بلنسية، ثلاثة آلاف فارس، وأربعة آلاف راجل، وهى قوة ضخمة وفقاً لمقاييس العصر، ولم يكن جيش المستعين يتجاوز أربعمائة من الفرسان، وعدداً من الرجالة لا تشير إليه كتب التاريخ.

وعندما علم **المنذر** صاحب لاردة، وشقيق **المستعين**، بما اعتزمه أخوه والسيد، ووجد أنه دون خصومه قوة وعدد جيش، فك الحصار الذى ضربه على بلنسية، وأرسل إلى **القادر** يعرض عليه صداقته، والدخول معه فى حلف مقابل أن يصمد وألا يسلم المدينة للمستعين، فاستجاب له رغم إدراكه بأن المنذر ليس أقل طمعا فى مملكته من أخيه المستعين.

ولم يتأخر الحلفاء فى الوصول إلى بلنسية، ومع أن **القادر** كان يجهل الاتفاق الذى بين **المستعين والسيد**، إلا أنه كان يشك فى نوايا الأول منهما، فخرج لا ستقبالهما كمحررين جاءا لعونه، وشكر لهما دلائل الصداقة التى برهنا عليها، والمساعدة التى يقدمانها له، ودعاهما إلى النزول بالقصر الكبير فى المدينة الجديدة. وفى نفس الوقت عمل على التفرقة بين الحليفين فاستمال السيد إلى جانبه، بالرشاوى الكثيرة تأخذ شكل هدايا متعددة وغالية. وعندما صارح المستعيُن السيِّد بأن ينفذ ما اتفقا عليه تنكر لوعده، بحجة أن القادر يدفع الجزية للملك قشتالة، فهو تابع له وفى حمايته، والهجوم على بلنسية يعنى إعلان الحرب على الملك **ألفونسو**؛ وهو لا يفكر فى انتزاع المدينة من القادر إلا إذا كان المستعين على استعداد ليعلن الحرب على ملك قشتالة، وكان السيد يدرك سلفا، وعلى نحو مؤكد، أن ملك سرقسطة على قدر من التبصر والحيطة، يحول بينه وبين أن يرمى بنفسه بين ذراعى جيش الإمبراطور القوى، لقد تهاوت آمال المستعين، فعاد إلى سرقسطة مسرعا، وترك فى بلنسية واحدا من قواده مع مجموعة من الفرسان، ليكونوا فى خدمة القادر ظاهراً، وليحتلوا المدينة إذا ما واتتهم الفرصة من جديد.

فى مثل هذه الظروف بدأ **السيد** يستقل بنفسه، ويعمل لحسابه، ويراوغ الجميع، يبيع العدو والصديق على السواء، ومن ثم فكر فى أن تكون بلنسية له، أو أن يكون فيها صاحب النفوذ الأول على الأقل. ولتحقيق هذا الغرض نصح **القادر** سراً، بعد أن استولى على هداياه، أو ارتشى منه إذا شئنا الدقة فى التعبير، ألا يسلم المدينة لأحد، وأنه سيكون إلى جانبه يدافع عنه ضد الجميع، ووعد **المنذر** صاحب لاردة بأنه سيعاونه على تحقيق بغيته فى الوقت المناسب، وأوهم **المستعين**، أخا المنذر، بأنه سينتزع له بلنسية إذا وافق

ألفونسو ملك قشتالة على ذلك، وأرسل إلى **ألفونسو** أنه رعيته وتابعه، وأنه سيقاتل لحسابه، وأن الحرب التى يقوم بها تعود بالخير على قشتالة لأنها تضعف أمر المسلمين، وأن هؤلاء الفرسان الذين يقودهم، دون أن يكلفوا الملك شيئاً، هم تحت تصرف الملك وطوع أمره، وأنه يأمل أن يقدم له مدينة بلنسية، وأن يضع شرق الأندلس كله تحت نفوذه. ولم يقف السيد مكتوف اليدين فبدأ يهاجم القلاع التى على الحدود وكان رده عند كل تساؤل : « إنه يصنع كل ذلك ليربح لقمة العيش »!.

ومن المؤكد أن **السِّيد** توجه إلى بلاط قشتالة؛ وأن الملك **ألفونسو** أحسن استقباله؛ وعنى بأمره كثيراً، وتنازل له عن بعض الحصون، وسلمه براءة يقرر فيها أن جميع الأراضى والقلاع التى يستولى عليها تصبح ملكا خاصاً له، ثم لأولاده وسائر عقبه من بعده. وقفل السيد عائداً إلى بلنسية، وتحت إمرته سبعة آلاف مقاتل.

وعندما علم **المستعين** بالاتفاق بين ألفونسو والسيد، فصم ما بينهما من محالفة، وانتهز **برنجير** كونت برشلونة، وخصم **السيد** العنيف، الفرصة فسارع إلى عقد تحالف مع المستعين، لمواجهة خطر السيد، وقد أصبح بما تحت إمرته من جيوش مرتزقة يهدد الجميع، وسار معه إلى بلنسية لضرب الحصار عليها من جديد، وعسكرا فى جبالة ولبريا، وعزما على إقامة حصن ثالث فى البحيرة للحيلولة دون الخروج من بلنسية أو الدخول إليها. وعندما علم برنجير أن السيد قد اقترب من بلنسية، ليفك الحصار الذى ضربه حولها، تغشاه الخوف، وتهيأ للرحيل قبل أن يصل جيش السيد، ولو أن الجنود لم يشاركوا برنجير خوفه، فأخذوا يسبون السيد، ويهددونه بالأسر أو الموت، وتحمل القنبيطور كل إهاناتهم، لأنه كان يعرف أن الكونت برنجير هو عم الملك

ألفونسو. وأخذ الرسل يتوافدون بين الكونت والسيد، وفهم الكونت أن عليه أن يرحل، فآثر السلامة وعاد إلى برشلونة.

عسكر **السيد** أخيراً فى الكدية، ضاحية بلنسية الشمالية، ويفصلها عن المدينة نهر «طوريا» بعد أن مرّ فى طريقه «بمربيطر» وأرغم حاكمها **ابن لبون** على أن يؤدى له جزية سنوية مقدارها ثمانية آلاف دينار. وفى الحال أغرقه **القادر** بالهدايا من تحف وأموال، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته، ويؤدى له جزية مقدارها ألف دينار أسبوعيًا، ويقال إنها كانت تزيد على مائة ألف دينار فى العام، مقابل أن يُدخل له فى طاعته كل قواد الحصون الثائرين، وأن يرغمهم على دفع الضرائب له، كما كانوا يصنعون من قبل وأن يظل معسكراً فى الكدية، وأن يحمل إلى بلنسية كل الغنائم التى يحصل عليها من إغارته لتباع فيها.

وفى الحال استجاب له قواد الحصون، فلما اطمأن إلى إذعانهم أغار على جبال ألبونت، حيث يحكم **جناح الدولة عبد الله بن قاسم**، وعاث فى أراضيه فساداً ونهباً وسرقة، وأرغمه على أن يدفع جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف دينار. وهكذا أصبح فى قبضة السيد أمراء بلنسية، والسهلة وألبونت، ومربيطر، وعلى نحو أدق أصبح كل جنوب شرق الأندلس تحت حمايته يدفع له الجزية خانعاً!

بعد هزيمة الزلاقة خاف **ألفونسو** من تقدم المرابطين نحو طليطلة عاصمة ملكه، فدعم حصن ألْبيط، ويقع فى الطريق إليها، بقوة تبلغ ألف فارس واثنى عشر ألف مقاتل، غير من معهم من النساء والأطفال، وكانت تغير على نواحى

لورقة عقاباً للمعتمد، لأنه تزعم دعوة المرابطين إلى الأندلس وامتدت غاراتها إلى المرّية ومرسية أيضاً. حينئذ فكر **المعتمد** فى الاستغاثة بأمير المرابطين مرة ثانية، وفعلا جاء ابن تاشفين إلى الحصن وضرب عليه الحصار، وفى صحبته عدد من الملوك والأمراء المسلمين. فكتب ألفونسو إلى **السيد** يستنجد به، ويدعوه إلى أن يتقدم سريعاً لمعاونة المحاصرين فى أليط، فأبدى السيد استعداده، ورجا الملك أن يخبره بالوقت الذى يتحرك فيه. ثم ترك معسكره فى ركونة Requena واتجه إلى شاطبة ليكون قريباً من مسرح الأحداث، وعندها أدركه رسول الملك يحمل إليه أمراً بأن ينتظر فى بيينا Villena، لأن الملك سيمرّ بها فى طريقه إلى المعركة، وأخبره بأن الجيش الذى جمعه الملك كبير يضم ثمانية عشر ألفاً من المقاتلين.

لكن **السيّد** عسكر فى أونتنيينت Onteniente ليؤمّن تموين قواته، فهى تقع فى واد ريان، وفير الماء، غنى بالخيرات، من شعير وقمح وفاكهة وزيت وأغنام، وترك فى كل من بيينا وجنجالة طليعة تخبره بوصول الملك. غير أن **ألفونسو** سلك طريقاً آخر، فلما عرف السيّد الخبر ترك هذين مسرعاً، حيث يوجد، مع قلة من رجاله، ليلحق بالملك فى مولينا، تاركاً وراءه معظم الجيش، ولكنه وصل متأخراً بعد أن انتهت المعركة، لأن أمير المرابطين ومن معه رفعوا الحصار بلا قتال. وعاد ألفونسو إلى طليطلة فى ٢٥ نوفمبر ١٠٨٩، وفيما بعد أمر بإخلاء الحصن لأن الدفاع عنه كان مرهقاً. وأعطى وصول السيّد إلى المعركة متأخراً الفرصة لخصومه لكى يهمسوا فى أذن الملك بأن القنبيطور وصل المعركة متأخراً عن قصد، ليمكن المسلمين من الجيش القشتالى فيمزّقوه شر ممزّق، ومن ثم أصدر الملك ألفونسو أمراً بمصادرة كل الضياع والحصون التى منحها للسيّد من قبل، والأموال التى له، وبسجن زوجته وأطفاله.

وما إن عرف **القنبيطور** الاتهام والعقاب حتى أرسل واحداً من فرسانه ألى الملك يبرئ نفسه مما اتهم به، ويقدم البراهين على براءته، ثم دعا خصومه إلى معركة قضائية أمام بلاط الملك، وقد رفض ألفونسو عرضه. ولكنه خفَّف من العقوبات التى أنزلها به، فأطلق سراح زوجته **دونيا خمينا**، وأطفاله، وسمح لهم بمغادرة قشتالة وأن يلحقوا بأبيهم.

وجد **القنبيطور** نفسه وحيداً، تخلى عنه **ألفونسو**، وانفصل عن **المستعين**، ومحاط بالأعداء من كل جانب، لا يتبع أحداً؛ وليس لجنوده ما يطعمونه إلا ما يربحه مغيراً. ونهماً إلى الغنائم، تشغل فكره، ترك ألش Eleche فى مطلع العام الجديد ١٠٩٠، واستقر فى قلعة بولب قريباً من ألقنت، بعد أن جاءته الأخبار أن فيها جواهر ثمينة وأموالا مخبَّأة، فحاصر الحصن، وأرغم حاميته على التسليم، وغنم كل ما وجد فيه، وألقى عليه أرضاً، ثم اتجه إلى أوريولة قريباً من شاطبة، فلم يبق فى طريقه على جدار قائم. ومن هناك مضى إلى كورة طرطوشة فاستولى على مرابط Miravet، وفيها أرسل إليه **المنذر** صاحب لاردة وطرطوشة يطلب محالفته. ولما علم **القادر** ملك بلنسية بهذه المحاولة خشى أن تكون على حسابه، فأرسل المزيد من الهدايا إلى السَّيد ليشترى رضاه، ومثله حذا كل صغار القادة والأمراء الذين حوله. بينما بدأ **المستعين**، ثم المنذر بعد أن تحالف السَّيد مع **القادر**، يكوّن حلفا جديداً ضد القنبيطور يجمع بينه وبين أخيه **وشانجه راميريث ملك أرجون**، **وبرنجير** كونت برشلونة، **وإرمنجول** كونت أورجل، فلم يستجب له منهم إلا كونت برشلونة، وكان يحقد على السيد كثيراً منذ أرغمه على الرحيل عن بلنسية وفك الحصار، فتحرك بجيشه من برشلونة، وذهب إلى دروقة Doroca ليزور ملك سرقسطة المقيم هناك، وقدم له المستعين مقابل عونه أموالا طائلة، ثم ذهب

الاثنان لمقابلة ألفونسو السادس ملك قشتالة، وكان ساعتها نازلا فى أورون Oron يطلبان عونه ضد السيد، وتحمس برنجير فأكد أنه سيطرد السيد من أراضى طرطوشة، وأن السبب الذى حال دون ذلك فى الماضى أنه كان رعية الإمبراطور - اللقب الذى يطلق على ألفونسو - وشاركه جنده الذين كانوا معه فى السخرية من القنبيطور، وشاركهم الرأى أعداء السيد الذين كانوا فى بلاط الملك، غير أن ألفونسو لم يثق فى قدرتهما، فلم يعدهما بشىء، وعادا من رحلتهما دون أن يمدهما بجندى واحد.

وأدرك **السيد** أنه غير قادر على مواجهة خصومة مجتمعين، فرحل من مرابط وعسكر فى غابات تيار، واد تحيط به الجبال العالية، والدخول إليه عسير، وعمل على التفرقة بين المتحالفين، وكان **المستعين** أول من وقع فى الفخ، فقد أدرك بعد أن ردّهما **ألفونسو** أن فى المسالمة السلامة، فبعث إلى السيد يطلب ودّه، وتجاوز المسالمة ليخون حليفه، فأسرّ إلى السيد أن الكونت **برنجير** يتهيأ للقائه. وكان كونت برشلونة يعتقد أن القنبيطور يمكن أن يرحل تحت ضغط التهديد والتحدى، فكتب إليه : «تزعم أننى ورجالى نساء، وإذا ساعدنا الله فسوف نبرهن لك سريعاً إلى أى مدى أنت وقعت فى الفخ... نحن نعرف أن آلهتك هى الجبال والغربان والصقور، وباختصار كل الطيور، وأن ثقتك فى عرّافيك أكثر من ثقتك فى عون القوى القادر. أما أنا ورجالى فعلى العكس منك، نؤمن بإله واحد، وأن هذا الإله سوف يثأر لنا منك، ويلق بك بين أيدينا. غداً مع أول شعاع للشمس سترانا عندك، وإذا تركت الجبل لتجئ إلينا، فستعرف قدر نفسك فى السهل. إننا نتنظر لذريق الملقب بالمحارب وبالقنبيطور، وإذا لم تجئ فسوف نعتبرك ختّاراً... لن ندعك تفلت قبل أن تقع فى قبضتنا جثة هامدة، أو حياً أسيراً، وسوف نعاملك بالطريقة

التي تحب أن نعاملك بها، فإلى المبارزة... إن الله سوف ينتقم للكنائس التي دنستها، وللأديرة التي هدمتها».

وقرأ السيد الرسالة في معسكره، بين جنوده، وفوراً رد عليه: «... لقد أهنتك، وإليك الأسباب: كنت مع **المستعين** في قلعة أيوب وقلت له: إنني لم أضع قدمي فوق أرضه خشية منك، ونفس الشيء قاله أتباعك للملك **ألفونسو**، في حضور فرسان قشتاليين، ثم قلته أنت أخيراً للملك ألفونسو بمحضر المستعين، وأنه لن يفوتك أن تطردني من بلاد الحاجب **المنذر**، وأنني لا أجرؤ على انتظارك. وفي لحظة أخرى تعللت بأنك لاتريد أن تحارب ضد أحد رعايا الملك. لأجل هذا كله أهنتك ووجهت إليك السباب!. طيب... **تعال إليّ، لم يبق لك حجة لكي لا تهاجمني، لقد وعدك المنذر بمبلغ ضخم**، ووعدته أنت بطردي من أراضيه، احفظ كلمتك!، تعال لمقابلتي إذا استطعت، إنني في سهل، أعظم السهول اتساعاً، وعلى أي حال عندما ألقاك سأعطيك راتبك كالعادة»!.

بلغ الغيظ والحنق مبلغه من **برنجير** وجنده من القطلان، فأقسموا على الانتقام، وانتهزوا فرصة ظلام الليل، واحتلوا دون أن يحس بهم أحد الجبال التي تحيط بمعسكر **السيد**، ثم انقضوا عليه فجأة مع انبلاج الفجر، وكان الهجوم مفاجأة للسيد وجنوده، حتى أن الوقت لم يتسع لهم لإعداد السلاح، فاستعر القنبيطور غضباً وحنقاً وغيظاً، ولم يفقد لحظة واحدة فانقض على أول جماعة لقيها من الأعداء، وقاتل مستميتاً، وسقط عن جواده، وجرح في ساقه، لكن أتباعه واصلوا القتال صامدين إلى أن أصابوا النصر. وبعده انقضوا على معسكر الأعداء فنهبوا ما فيه من ملابس وجواهر وتحف وخيام، وغنموا ما هم من خيل وسلاح وبغال، وأسروا الكونت برنجير نفسه، وخمسة آلاف

من أتباعه، واقتيد برنجير إلى خيمة السيد، وتقدم إليه كسير النفس يطلب العفو منه، لكن السيد عامله بقسوة زائدة، فلم يسمح له أن يجلس إلى جواره فى خيمته، وأمر جنوده أن يسحبوه خارجها، وأن يحرسوه جيداً، غير أنه أمر بأن يقدم له، وللأسرى الآخرين، ما يكفيهم من الطعام، ثم قبل منه الفدية التى عرضها عليه، ولواحد من فرسانه يعزه، هو جيرود المان وتبلغ قيمتها أربعة وعشرين ألف مارك من الذهب البلنسى، أما بقية الأسرى فقد أطلق سراحهم مقابل وعد منهم بأن يدفعوا الفدية مستقبلا. فلما عادوا إلى مدنهم جمعوا من الأموال ما استطاعوا، ولم يكن ما جمعوه كافيًا، فعرضوا عوضاً عنه آباءهم وأبناءهم وأقاربهم، ولكن السِّيد وقد أحس تعاستهم كان كريماً معهم، فأبرأ ذمتهم من باقى الفدية. بقى لنا أن نشير إلى أن شاعر الملحمة قد أبدع وهو **يقدم لنا الموقف الدرامى الذى جرى بين السيد والكونت برنجير، بعد أسر وقُدم له الطعام، وأعطانا تفصيلات وافية، وحواراً نابضاً بالحياة**[1].

تأثر كونت برشلونة إزاء عفو السيد، فعرض عليه أن يكون صديقه وحليفه، غير أن السيد وكان يطوى جوانحه على بغض شديد للكونت رفض العرض، لكنه نزل عند نصيحة جنده وإلحاحهم، ووافق على أن يتحالف مع خصمه القديم، ولما عرف المنذر صاحب لاردة هزيمة كونت برشلونة مات كمداً، تاركا وراءه طفلا فى سن طرية ،فاشترى له أوصياؤه رضى السِّيد وحمايته بجزية سنوية قدرها ٥٠ ألف دينار.

وإلى جانب ما ذكرنا من جزية كان يتلقى من بنى رزين سادة شنتمرية

---

(١) انظر القصائد من رقم ٥٦ إلى ٦٢.

الشرق عشرة آلاف دينار فى كل عام ومن عبد الله بن قاسم صاحب البونت عشرة آلاف دينار، ومن ابن لبون حاكم مربيطر ثمانية آلاف، ومن قلعة شيوب ستة آلاف، ومن الشارقة ثلاثة آلاف، ومثلها من حصن المنارة، وألفى دينار من ليريا. أما أعلى جزية فكانت تدفعها مدينة بلنسية وقيمتها اثنان وخمسون ألف دينار سنويًا، فضلا عما يساوى اثنين فى المائة من قيمتها، أى خمسة آلاف ومائتى دينار، تدفع لمطران بلنسية، القائم على شئون المستعربين، وتسميه المراجع العربية سعيد المطران.

وبينما كان **السيد** يحاصر ليريا لأنها امتنعت عن دفع الجزية، تلقى رسالة من ملكة قشتالة تطلب إليه أن يلحق بالحملة التى يقودها الملك **ألفونسو** ضد مسلمى الأندلس، فتحرك نحو جنوب شرقى الأندلس فعلا، والتقى بالملك فى مرتوس، غربى جيان، فأحسن ألفونسو لقاءه، لكنه ما لبث أن غضب عندما رأى السيد ينصب خيامه فى السهل، بينما عسكر الملك على قمة الجبل، ورأى فى تصرفه شاهداً جديداً على تكبره، وقال لحاشيته : « أى عار يُلحق بنا لذريق، جاءنا متعباً يشكو من رحلة طويلة قطعها ليلحق بنا، وها هو ينازعنا السهل، وينصب خيامه أمام خيامنا » وكالعادة فإن رجال الحاشية جعلوا الحق كاملا فى جانب الملك.

والتقى **ألفونسو** مع المرابطين، وفى البدء أوشك ميزان المعركة أن ينقلب لصالحه، غير أنه فى النهاية أصيب بهزيمة قاسية، وأوشك الملك نفسه أن يقع صريع سيوف أعدائه، وطبعاً عُزيت الهزيمة إلى تصرفات لذريق فغضب عليه الملك، وسبّه وحاول أن يسجنه، لكن السيد انتهز فرصة ظلام الليل وولىّ هارباً، عاد نحو بلنسية بجزء من قواته، أما الكثرة الغالبة ففارقته وانضمت إلى جيش ملك قشتالة. حينئذ قرر الملك ألفونسو أن يعاقبه، وأن يضع حداً

لنفوذه، وذلك بانتزاع بلنسية منه، وكانت تدفع الجزية للسيد، فعقد حلفاً مع أهل بيشة Pisa وجنوة لكى يحاصروا المدينة بحراً بينما يحاصرها هو من البر. واتجه ألفونسو إلى بلنسية فعلا وضرب عليها الحصار، بينما تأخرت سفن البشيين والجنويين.

فى ذلك الوقت كان **السيد** فى سرقسطة مشغولا بمؤازرة ملكها المسلم، فى صراعه مع ملك أرجون المسيحى، فلما نُمى إليه ما حدث غادر سرقسطة مع جيشه، واتجه إلى قشتالة نفسها، ينشر فيها الدمار والخراب، فانقض كالصاعقة على ناجرة وقلهرة، وهى من أملاك الكونت **غرسية أوردونييث** عدوه اللدود، ثم أتى مدينة لوجرونيو فجعل عاليها سافلها. وألحق بأهلها المسيحيين أضراراً بالغة، فلما اتصلت الأخبار بالملك **ألفونسو** رفع الحصار عن بلنسية، وقفل مسرعاً إلى مملكته لكى يتولى الدفاع عنها، بينما اتجهت السفن الجنوية والبيشية وقد جاءت متأخرة إلى طرطوشة.

كان السيد كالإعصار وهو يجتاح أرضى قشتالة، فدمرها تماماً، ولقد احتاج الملك إلى ثلاثة أعوام كاملة لكى يعيد بناء مدينة لوجرونيو الصغيرة إلى ماكانت عليه.

سيِّد بلنسية

إذا كانت أعمال السيِّد قبل تمكنه من بلنسية تخضع للنقد التاريخى، وتدخل فى نطاق الترجيح، فإن استيلاءه على هذه المدينة تم فى وضح التاريخ، وتجمع عليه كل المصادر الإسلامية والمسيحية، والإسلامية أشد تفصيلا وأكثر دقة فيما تقدم من أخبار، ولقد مرَّت كبرى مدن شرق الأندلس بلحظات عصيبة قبل أن تقع بين فكى مغامر لا يرحم.

فبعد أن رفع **ألفونسو** الحصار عن المدينة بزمن قليل، اعترم البلنسيون أن يتخلصوا من العبودية التى فرضها عليهم **السيِّد**، وكان **السيِّد** أثناء تنقلاته الكثيرة قد اعتاد أن يترك ببلنسية ممثلا مباشراً له، مسلماً شديد الإخلاص لقضيته، اسمه **ابن الفرج**. وكان قاضى المدينة أبو أحمد ابن جعفر بن عبد الله **بن جحَّاف** المعافرى رجلا طموحاً، يتزعم فى المدينة الحزب المناوىء للسيِّد، ويناهض الحزب الذى يلتف حول **القادر**، ويعيش فى حمى السيِّد ويدفع له الجزية، فأرسل سرًّا إلى **ابن عائشة** قائد المرابطين، وكان يرابط بجيشه فى مرسية ودانية قريباً من بلنسية، بأن يساعده فى تسلم المدينة إذا ساعده فى محاربة القادر والسيِّد، واستجاب ابن عائشة لدعوته، واستيقظت المدينة ذات صباح على قرع الطبول، وسأل ابن الفرج عن الخبر فقيل له : إن سريَّة من الجيش المرابطى فى خمسمائة فارس تقف على باب تطيلة، ثم تبين أنهم لم يكونوا غير أربعين بقيادة **أبى ناصر**. ومع ذلك استبد الهرج بالمدينة، وقاد ابن جحَّاف جموع الثائرين واتجه إلى القصر الملكى، واعتقل ابن الفرج ممثل السيِّد، وعبثاً حاول العثور على القادر، لقد كان لدى الملك من الوقت ما أتاح

له أن يتزيى ملابس امرأة، وأن يحمل ثرواته الأغلى ثمناً والأندر نوعاً، ثم خرج من القصر بين عشيقاته، واختفى داخل منزل متواضع المظهر، فى حىّ قليل الارتياد، ولقد نهب الثائرون القصر وأتوا على ما فيه دون إراقة دماء، فلم يقتل عنده غير جنديين.

كان **ابن جحاف** يعرف أكيداً أن **القادر** لم يغادر المدينة، فبحث عنه حتى وجده، ونوى أن يستولى على ما معه من مجوهرات يخبؤها، وبينها حلى وجواهر الملكة زبيدة، وتساوى مبالغ طائلة، وطريقه إليها أن يتخلص من حياة الملك أولا، فترك بعض جنده المخلصين على حراسته، وأسرّ إليهم أن يغتالوه إذا جاء الليل، وقام بالأمر رجل يُدعى **ابن الحديدى** له عند القادر ثأر، فقد قتل فى سابق طغيانه بعض أقاربه. وحمل القتلة رأس القادر، وطافوا بها شوارع بلنسية.

وكان ذلك فى آخر يوم من رمضان ٤٨٥ هـ = ٤ من نوفمبر ١٠٩٢ م، ثم طرحوها فى مستنقع قريب، ودفعوا بجزء من الجواهر للقاضى ابن جحاف، واحتفظوا بالباقى لأنفسهم، وجاء بضعة رجال فحملوا بقية الجسد، ووضعوه فى نعش، وغطوه بلبادة قديمة، وحملوه خارج المدينة، ووارُوه التراب بلا تكفين.

وأصبحت بلنسية جمهورية تحكمها «الجماعة»، نفس ما حدث فى قرطبة وإشبيلية بعد سقوط الخلافة، وأصبح **ابن جحاف** القاضى رئيساً لها، ولعله أمّل أن يكون فى بلنسية ما كان **ابن عبّاد** القاضى فى إشبيلية، أو ما كانه **ابن جهور** فى قرطبة، ولكنه كان دونهما فطنة وسياسة ووقاراً، فاستخف بادىء الأمر، غير أن الظروف أرغمته على أن يفكر بطريقة أكثر جدية، فبدأ

يحشد الجند، ويحصّن أطراف المدينة، ويستعد للطوارىء.

أثناء ذلك هرب بعض أتباع الملك، وعدد من جند **ابن الفرج**. وذهب جماعة منهم إلى سرقسطة تقص على **السيد** ما حدث، فسار نحو بلنسية، وانضم إليه كل المهاجرين، وأقسموا له يمين الولاء، ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه، ونزل جبالة Cebolla وضرب الحصار حول بلنسية، واستولى على ربضى «بلة نوبة»، أى المدينة الجديدة، والكدية، وأخذ يرسل العشرات من الغارات فى اليوم الواحد، ويأمر قواته ألا تدمر غير المعسكرات وألا تزعج سكان المزارع والفلاحين. بل وكان يبيع لسكان مربيطر الغنائم التى يحصل عليها وما يحتاجون إليه من تموين. ثم حاول أن يستميل **ابن جحاف** إلى جانبه فأرسل إليه بأن يطرد المرابطين من المدينة ويتعهد له بأن يصبح سيد بلنسية الوحيد، وأن يمده بالعون والحماية على نحو ما كان يفعل مع **القادر** من قبل. ولم يقطع ابن جحاف فى العرض قبل أن يستشير ابن الفرج صديق السيد وممثله من قبل، وأعرف الناس بما عليه، فنصحه بأن يعتمد على السيد. فبدأ ابن جحاف يمهّد للأمر، أرسل إلى السيد يخبره بأنه قبل عرضه، وقلّل من رواتب فرسان المرابطين بحجة أنه فى حاجة إلى الأموال ليرغمهم على ترك المدينة. غير أن القاضى لم يكن يثق فى السيد كثيراً، ولم يرد أن يقطع صلته بالمسلمين نهائيًا، فعرض على «الجماعة» أن يرسل جانباً من الأموال التى أخذت من القادر إلى أمير المرابطين ليهيىء بها جيشاً يجىء لعونها عند الضرورة، فوافقت الأغلبية على القرار، وكلفت جماعة تتكون من خمسة أشخاص، بينهم ابن الفرج، بحمل هذه الأموال فى سرية تامة، لكن ابن الفرج أنبأ السيد سرًا بما حدث، فاقتفى هذا أثرهم بفرسانه، وأدركهم فى الطريق، وجردهم من كل ما كان معهم من أموال.

غير أن انتصارات **السيد** خارج المدينة، وتقاعس المرابطين، واختلاف الكلمة فى الداخل، جعل السكان راغبين فى الوصول إلى اتفاق مهما يكن الثمن، وعندما طلبوا من السيد شروطه لتوقيع اتفاقية السلام، رد عليهم بأن يضعوا هم الشروط التى يريدونها شريطة خروج المرابطين. وأخيراً انتهت المفاوضات بينهم على أن يغادر المرابطون المدينة آمنين، وأن يدفع **ابن جحاف** ثمن ما كان مودعاً بمخازنه من حنطة وقت مقتل **القادر**، وأن يدفع الجزية التى كانت تدفع من قبل، ومقدارها ١٠ آلاف دينار شهريًا مع متأخراتها من وقت أن بدأت الحرب، وأن تبقى الضواحى التى استولى عليها السيد بقوة السلاح له، وأن يسمح له بأن يعسكر بجيشه ما بقى فى أرض بلنسية فى حصن « جبالة ».

وخرج المرابطون من المدينة، بعد أن ملوا مؤامرات قادتها وصغارهم وسرعان ما نقض **السيد** عهوده - كالعادة - وأخذ يتردد فى جنده على ضواحى المدينة ويعيث فيها، ويرهق **ابن جحاف** بمطالبه المالية، بينما بدأ هذا يعانى من المؤامرات الداخلية، ومن مناوأة الزعماء المحليين، وبخاصة **بنى طاهر** أصحاب مرسية السابقين، وكانوا يتصلون بالسيد سراً، ويتآمرون معه على ابن جحاف. وحاول السيد أن يعجم عود القاضى، ويقيس مدى خضوعه، فطلب منه أن يتنازل له مع بعض أصحابه عن القصر الملكى ليقيم فيه لبضعة أيام، وكان يضم واحدة من أروع الحدائق العالمية، ووافق ابن جحاف، وهيأ القصر ومداخله، فغطّى الأرض بالسجاجيد الفاخرة، وأعد ولائم هائلة، وفى اليوم المحدّد انتظر السيدَ طويلا، ولكنه لم يجىء، ومع الظلام قدم رسول منه يقول إن مزاج لذريق مشوّش، ويحول بينه وبين تحقيق ما وعد به، وأحسّ البلنسيون قسوة الإهانة، وغضب لها الجميع حتى خصوم القاضى، وتولى ابن جحاف

والأشراف، وكانوا يرتجفون خوفاً على أراضيهم وضياعهم، تهدئة الجماهير، فلم يتحرك مخلوق.

ولما رأى **السيد** أن القاضي تجرّع الإهانة صاغراً ظهر فجأة في حديقة القصر، وزاد فاستولى على الضاحية المحيطة به، بينما سكان بلنسية ينتظرون في صبر نافد تقدم جيش المرابطين، وسارع **ابن جحاف** فأعلمهم مهدئاً بأن إقامة السيد في القصر الملكي مؤقتة، فلما أعرضوا عنه هدّد مناوراً بالتخلي عن رئاسة الجماعة، والعودة إلى حياته الخاصة، فذهب البلنسيون إلى **ابن طاهر** يعرضون عليه أن يصبح رئيساً للجمهورية، وبدأوا يتمردون على ابن جحاف وسياسته، وأغلقوا أبواب المدينة في وجه السيد. وبدأ المرابطون يتقدمون حتى وصلوا مدينة شاطبة، وانسحب السيد من حدائق القصر الملكي، واستقر رأيه على انتظار الأعداء حيث هو، وحطّم كل الجسور القائمة على نهر الوادي الكبير، وأغرق كل السهول المحيطة به، حتى لا يستطيع المرابطون أن يهاجموه إلا من طريق متعرج تماماً.

وعمت بلنسية فرحة غامرة لم يقدر لها أن تدوم طويلا، فقد جاءهم من ينقل إليهم أن المرابطين لن يتقدموا، وأنهم نكصوا على أعقابهم، فأصبح الناس سكارى لا يفهمون ما يقال لهم، واسودت وجوههم، على حد تعبير مؤرخ مسلم، كما لو كانت قد طليت بالقطران، وفقد الناس ذواكرهم كما لو كانوا قد سقطوا في أعماق المحيط. بينما شملت البهجة جنود السيد فأخذوا يسبون سكان المدينة ويتوعدونهم لكي يدفعوهم إلى التسليم، وعاد السيد مرة ثانية إلى القصر الملكي وحدائقه بينما الجنود نهمون يتطلعون إلى الساعة التي تتاح لهم لكي يهجموا على المدينة وينهبوا ما فيها.

ولم يفقد البلنسيون الأمل نهائياً فى مساعدة تأتيهم، فقد كتب **ابن عائشة**، قائد جيش المرابطين، إلى **بنى طاهر** يخبرهم بأن المرابطين لم ينسحبوا جبناً، وإنما لاعتبارات تتعلق بالتموين، وأن حملة جديدة تعد، وهى وعود شدت عزائم المحاصرين لوقت قصير، فقد جاءت الأخبار أخيراً بأن الجيش المرابطى عبر المضيق عائداً إلى المغرب، فهبطت الروح المعنوية للناس، وفقد **ابن طاهر** شعبيته، وبدأ **ابن جحاف** يسترد مكانته، ووجد الفرصة سانحة لكى يؤلب العامة على بنى طاهر، وأنهم بلا خبرة أو كفاية، وهم المسئولون عن كل الرزايا التى أصابت المدينة، وجاءه الناس يطلبون رياسته ثانية، وهو يتمنع ظاهراً بحجة أنه انصرف إلى حياته الخاصة، ولا يستطيع أن يعطى رأيه لأناس تغلب عليهم روح التعصب، وأن طريقهم لدفع الكارثة أن يتركوا خلافاتهم وأحقادهم، وإذا أرادوا نصحه وعونه، فليجردوا بنى طاهر من سلطانهم. وأمام المستقبل وظلامه استجاب له الناس طائعين وبويع برياسة الجماعة من جديد، فى فبراير أو مارس عام ١٠٩٤م.

كان **ابن جحاف** يتوقع معارضة بنى طاهر وهم كثيرون وأقوياء، ولهم أتباع، فعمل على أن يشل حركتهم، دعا السكان إلى العمل، ودفع الجزية المعتادة إلى السيد، على أن يدعهم السيد فى أمان. وأسرّ إلى السيد أن يأتى إلى أسوار المدينة وأن يقول للبلنسيين إنه لن يستمع إلى أى اقتراح منهم قبل أن يترك بنو طاهر المدينة، وبعدها كلف ابن جحاف واحدا من قواده يدعى **التاكرتى** بأن يذهب ليلا ويعتقلهم، ووضع تحت إمرته عدداً كبيراً من الفرسان والمشاة، واحس **بنو طاهر**، ولم تكن بيوتهم محصّنة، فلجأوا إلى منزل فقيه تحيط به أسوار عالية، يحتمون به حتى تستيقظ المدينة ويجىء أتباعهم لمساندتهم، ولم يضيع القائد وقته فى تسلق الأسوار، فأشعل النار فى الأبواب،

واقتحم الجنود البيت، وبينما تكفل هؤلاء باعتقال بنى طاهر، قام الغوغاء الذين تجمعوا من كل جانب بنهب ما فيه من مؤن وأثاث ومتاع، وألقى بهم ابن جحاف فى السجن، لكنهم لم يبقوا فيه طويلا، فقد عم الغضب بلنسية احتجاجا على ما حدث لهم، وجاء السيد فى مساء الغد فأطلق سراحهم، وتركهم يغادرون المدينة ويسكنون ضواحيها.

خرج **ابن جحاف** من المدينة إلى «بله نوبه» لمقابلة **السيد** فكان فى استقباله مطران شنتمرية الشرق، وعدد من الفرسان، وفى ظنهم أنه سوف يهاديهم بشىء، وهو ما لم يفعله، فصحبوه إلى السيد فتلقاه فى البدء باشاً، وأمسك بركابه، وعانقه، ورغب إليه أن يخلع لباس القاضى، وأن يرتدى زى الملوك، لأنه ملك فعلا، وطال الحديث، وتوقع السيد أن يقدّم له ابن جحاف شيئا من جواهر القادر وتحفه، فلما لم يفعل غير لهجته، ووعد ابن جحاف بحمايته وصداقته، مقابل شروط ساقها إليه شرطا وراء اخر، الأقل صعوبة فالأصعب إلى أن انتهى به إلى موقف قاس مهين. أن يتنازل له عن نصف دخل المدينة والمزارع المتصلة بها، وأن يقوم بجباية ضرائبها مشرفه الخاص، وقبل ابن جحاف، فزاد السيد: وأن يقدم القاضى ابنه رهينة لتنفيذ الشروط، وامتقع وجه ابن جحاف، ولكنه كبح مشاعره ووافق، فطلب منه السيد أن يأتى فى اليوم التالى ليوقع الشروط، وعاد القاضى التعس إلى بلنسية، وقلبه يقطر أسى، لقد عرف كم كان متهوراً عندما وافق على أن يرغم المرابطين على الرحيل وأن يثق فى السيد.

ولم يجئ القاضى فى اليوم التالى، وأرسل **السيد** فى طلبه، وكان ردّ **ابن جحاف** إنه يفضل أن يفقد رأسه قبل أن يضحى بابنه، وغضب السيد من

رده، وتوعدّه بأنه وقد أخلف وعده لم يعد أهلا لصداقته، وبدا الاتفاق بين الاثنين مستحيلا، وأخذت الحالة فى المدينة تتدهور سريعا، فقد أحكم السيد الحصار حولها، وبدأ جنوده يقتربون من أسوارها، وتهاوت أسعار البيوت والأثاث. فكل الناس يريدون البيع وليس هناك راغب فى الشراء، وارتفعت أسعار الأغذية بشكل جنونى، واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهرا، فتك الجوع بالسكان، وأكل الناس الفيران والكلاب والجيف، وبلغ ثمن رطل القمح مثقالا ونصفا، وأوقية الجبن ثلاثة دارهم، ورطل البقل بخمسة دراهم، وبيضة الدجاجة بثلاثة دراهم، ورطل اللحم بستة دنانير، وعظم البلاء، وتضاعف الغلاء، وأصبح الناس سواء، الفقراء والأغنياء، وكان من المناظر المألوفة أن ترى جمعا من الناس يفتش عن بقايا عنقود من العنب بين المجارى ومزالق القمامة، وعشرات من الرجال والنساء والأطفال يتربصون اللحظة التى يفتح فيها أى باب من أبواب المدينة لكى يندفعوا هاربين إلى معسكرات السيد، فينتهى بهم الأمر إلى أن يقتلوا فورا، أما الذين فيهم بقية من رمق، فيباعون إلى مسلمى الكودية، برغيف من الخبز أو زق من النبيذ، وكان هؤلاء يموتون عادة قبل أن يحصلوا على مايسد الرمق، وأخيرا فالذين يصلون فى صحة لا بأس بها، من الطبقات الموسرة، يباعون لتجار الرقيق الذين توافدوا فى أعداد هائلة من وراء البحر.

وإزاء هذا الموقف البالغ السوء كتب **ابن جحاف** إلى **المستعين** ملك سرقسطة، يصور له مآسى المدينة ويطلب عونه، ودفع بالكتاب إلى رجل خرج من المدينة تحت جنح الظلام، غير أن المستعين لم يكن راغبا فى الاصطدام مع السيد صديقه وعميله القديم، فترك الرسول ينتظر ثلاثة أسابيع، وأخيرا وبعد إلحاح من الحاشية سلّمه رداً يخبر فيه ابن جحاف بأنه سوف يكتب لألفونسو ملك قشتالة يطلب عونه، وينصحه أن يتذرع بالصبر، وأن يقاوم، «وأعلمنى

بأخبارك بين حين وآخر». وتابع ابن جحاف خطته، وبدأ يحفر المنازل بحثاً عن الأغذية، ويستولى على ما يجده منها، ولا يترك للملاك إلا مئونة نصف شهر. يدفع ثمن ما يأخذ أحيانا، وعادة لا يدفع شيئا، ولكنه يعد دائما. وكان رده بإزاء أى احتجاج، إنها محنة، على الجميع أن يتقاسموا ضرّاءها، وأن يواجهوها صابرين. ونفدت الأطعمة وترمّق سائر الناس بالجلود والأصماغ وعرق السوس، وبالفيران والقطط وجيف الآدميين. وفى دوامة المحنة، صعد بلسى مسلم أعلى برج فى المدينة، وألقى قصيدة مؤثرة، بكى فيها المدينة، وصوّر مأساة سكانها، وهى قصيدة تستحق وحدها وقفة خاصة، ودراسة مستأنية وعرضناها فى مكان آخر[١].

وتوالت رسائل **ابن جحاف** للمستعين ملك سرقسطة يطلب النجدة، ولم يكن عند **المستعين** ما يقدمه غير وعود لم يوف بها أبدا وأنه طلب عون **ألفونسو** ملك قشتالة، فرد عليه بأنه أرسل له **غرسية أوردونييث** عدو السيد اللدود، مع عدد من الفرسان القشتاليين، وأنه سيلحق بهم شخصياً. وكتب ابن جحاف نفسه إلى أصدقاء الملك ألفونسو، غير أن هذا آثر أن يراوغ حتى يرى كيف تستبين الأمور.

كان **السيد** يدرك جيداً ما يكلفه الهجوم على المدينة قبل أن يدمرّها من الداخل، فحاول أن يثير الناس على **ابن جحاف**، وراسل بعض السكان ليثوروا، ولكن القاضى علم بالمؤامرة، وقضى على رءوسها، قتل بعضهم، وألقى بالآخرين فى السجون.

ومع الزمن كان الجوع يأخذ بخناق المدينة، على نحو لم تعرفه الإنسانية،

---

(١) انظر فصل: «مرثيه بلنسية ضائعة»، من كتابنا: دراسات أندلسية، فى الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

ولا فى لحظات الأوبئة الطاحنة، لم يعد القمح يباع بالرطل، وإنما بالحفنة، والحفنة تساوى ما يزيد على خمس ليرات، والليرة الواحدة تساوى ثلاثة دنانير والناس يسقطون موتى من الجوع فى الأسواق والميادين والشوارع وحول جدران الحصون، وتحولت الأراضى الخالية إلى مقابر، وكل قبر يضم عشر جثث على الأقل، وفضّل الناس أن يهربوا إلى معسكر السيد، يموتون هناك بضربة واحدة، أو تكتب لهم الحياة فيصبحون رقيقاً.

وخلال تقدم الجوع كان **السيد** يستعجل النهاية، لأنه يخشى وصول المرابطين، وراودته فكرة أن يستولى على المدينة بضربة واحدة، وغرّر به عملاؤه داخلها، وهكذا جمع كل قواته، وأمر باهجوم على باب الحنش، وما إن تقدّموا حتى غطاهم طوفان من الأحجار والسهام، بقوة لم يعرف لها السيد مثيلا من قبل، واضطر أن يختبىء فى حمام، فاقتحمه جنود ابن جحاف، فهرب من باب خلفى صغير، وفشل مشروعه تماماً، وندم بمرارة لهذه الغلطة، وقرر ألا يعود لها ثانية، وأن يسير على خطته الأولى، وهوأن يستولى على المدينة عن طريق الجوع. وعمل فى الوقت نفسه على زيادة الأفواه غير الضرورية فى المدينة، فأعلن بواسطة مناد اقترب من المتاريس ليسمعه المحاصرون، يأمر فيه سكان بلنسية الذين خارجها أن يعودوا إليها، ويهدد كل شخص يحاول الخروج منها بالحرق حياً، ووضع تهديده موضع التنفيذ فأحرق علانية، على أكوام من الحطب متأججة، ثمانية عشر رجلا فى يوم واحد، ومع ذلك كان هناك من يفضل أن يموت محترقاً فى ساعة، على أن يموت جوعاً على امتداد أيام، وبعضهم نجح فى أن ينقذ حياته، لأن جنود السيد كانوا يخبئونهم، ويبيعونهم رقيقاً فى غفلة من قائدهم، والحق أن مثل هذا العمل كان ترفا خُصت به الفتيات والأطفال. وأحياناً إذا عرفوا أنهن ينتمين إلى أسر غنية صعدوا بهن إلى

مآذن المساجد التى خارج المدينة، يتظاهرون برميهن أحياء أو رجمهن بالحجارة، فيفتديهن أهلوهن بالجواهر والأموال، شريطة أن يسمح لهن بالبقاء فى أرض الكودية.

وهكذا حقّقت المجاعة أغراضها، وبدا أقارب **ابن جحاف** وجنده من دعاة الاتفاق مع **السيد**، بعد أن استنفد الناس طاقتهم فى تحمل الآلام، ولم تعد لديهم أية قدرة، وفقدوا الأمل نهائياً فى مساعدة تأتى من قبل **المستعين** ملك سرقسطة أو المرابطين، فاجتمعوا لدى الفقيه **أبى الوليد الوقشى** لكى يكلم القاضى ابن جحاف، وأرغموه على مفاوضة السيد، وعقد الصلح، فأذعن وترك لهم أمر المفاوضة، فذهب وفد منهم لمقابلة السيد، وتم الاتفاق على أن يبعث البلنسيون رسلهم إلى ملك سرقسطة، وإلى **ابن عائشة** قائد المرابطين فى مرسية يطلبون الغوث والإنجاد فى عدة خمسة عشر يوماً، وأن يقوم **ابن عبدوس** خلال ذلك بالإشراف على المدينة، وأن تُسلّم الأبواب ليحتلها الروم المحليون، فإذا لم يحضر أحد للنجدة فى خلال المدة الممنوحة سلمت بلنسية بالشروط التالية: يتولى ابن جحاف منصب القاضى الذى كان يشغله من قبل، ويؤمن فى شخصه وماله ونسائه وأطفاله، وأن يصبح ابن عبدوس، وكان موضع ثقة السيد والبلنسيين معاً، مسئولا عن الضرائب، وأن يصبح **موسى**، وكان حاكماً للمدينة أيام القادر، وزيراً مسئولا عن بلنسية، وأن يقيم السيّد فى «جبالة» وأن تحترم شريعة المسلمين وعاداتهم وعملتهم التى كانت سائدة، وألا تزيد نسب الضرائب التى كانت مفروضة من قبل.

وفى اليوم التالى لتوقيع الاتفاق رحل خمسة من البلنسيين إلى سرقسطة ومثلهم اتجهوا إلى مرسية، واشترط **السيد** ألا يحمل أى منهم أكثر من خمسين ديناراً، وكان الذاهبون إلى مرسية سيبحرون فى سفن مسيحية تحملهم إلى دانية

أولا، ومن هناك يتابعون الرحلة براً، وصعد السفراء ولم تتحرك السفينة، فقد كانت الأوامر التى لدى القبطان ألا يتحرك قبل أن يصل السيد نفسه، وجاء فعلا، وقام بتفتيشهم شخصياً، فوجد معهم أموالا كثيرة يحملونها لأنفسهم أو حملها لهم بعض التجار لكى يفلتوا بها من قبضة الحصار فانتزعها منهم، ولم يترك لهم غير المبلغ المتفق عليه.

وخلال الهدنة بدأ المتاجرون فى السوق السوداء يبيعون ما عندهم من أطعمة بأعلى الأسعار، لأن الحصار سوف يرفع قريباً، ومرت الخمسة عشر يوماً، لكن أحداً من السفراء لم يعد، وحاول **ابن جحاف** أن يقنع السكان بالانتظار ثلاثة أيام أخرى فكان ردهم بأنهم لا يريدون ولا يستطيعون، بينما أقسم لهم **السيد** بأعظم الأيمان، بأن مرور لحظة واحدة بعد الموعد المحدد دون تسليم المدينة يجعله فى حل من الإتفاق. ومر يوم دون أن تفتح المدينة أبوابها، وعند ما ذهب الذين وقعوا الإتفاق لمقابلة السيد قال لهم : إنه غير ملزم بشىء على الإطلاق، لأن موعد التسليم قد فات. غير أن الناس ألحوا عليه فى أنهم يضعون المدينة بين يديه. وفى اليوم التالى خرج ابن جحاف صحبة زعماء المدينة من المسلمين والمسيحيين إلى مقابلة السيد ووقع معه اتفاقاً بتسليم المدينة، ثم عاد إليها، وفى الساعة الثانية عشرة ظهراً فُتحت الأبواب، وكان ذلك فى يوم الخميس ١٤ من يونية عام ١٠٩٤. وتجمعّت الجماهير التى طحنها الجوع، وجوههم مصفرة، وأنفسهم كسيرة، كما لو كانوا فى يوم الحشر يبعثون من القبور، ليمثلوا أمام جلال الله.

وعند ما فُتحت الأبواب تدفق جنود السيد داخل المدينة، فاحتلوا المتاريس والقلاع، ولم تُجد صيحات ابن جحاف القاضى بأن هذا نقض لنصوص الاتفاق، بينما شغل البلنسيون بالحصول على الطعام.

جاء باعة الخبز والفول من الكودية، فتدافع الناس عليهم فى شراهة بالغة، وذهب الأغنياء إلى الربض بأنفسهم يشترون من هناك كل ما تسمح لهم به دخولهم، وانتشر الفقراء لا يملكون مابه يطعمون فى الحقول المجاورة، يجمعون الحشائش ويقتاتونها، ولم تهبط نسبة الموق كثيراً، فبالأمس كانوا يموتون جوعا، وهم اليوم يموتون تخمة.

وصعد **السيد** برج أعلى قلعة، وتفحصّ المدينة، وجاء السكان يقبّلون يده فكان يستقبلهم مرحبا، وأمر بتغطية نوافذ الأبراج التى تطل على المدينة، حتى لا يتطلع فضولى من الجنود إلى ما يجرى داخل بيوت السكان، وأمر المسيحيين بأن يظلوا على احترامهم للمسلمين، يسلمون عليهم إذا مروا بهم، ويفسحون لهم فى الطريق إذا التقوا معهم، وأخذ المسلمون للوهلة الأولى بخلقه وسياسته، وتنظيم جيشه، وحاول **ابن جحاف**، وعرف إن السيد غضب عليه يوم أن ذهب للقائه بلا هدايا، أن يقدم له جانبا من الأموال التى جمعها من بيع الخبز غالياً أيام قحط المدينة، خلال الحصار، ورفض السيد قبولها لأنه كان يعرف مصدرها.

وأرسل مناديا يطوف بالمدينة يدعو« الفرسان والرجال الشرفاء » إلى حضور اجتماع يعقده **السيد** فى حدائق ضاحية « بله نوبه » وجاء بلنسيون آخرون كثيرون كانوا قد تركوا المدينة خلال الحوادث إلى ليريا ومرسية وجيان، وصعد السيد على منصة غُطيت بالسجاد والحصر، وبدأ يخطب الحاضرين عن قضايا عديدة، ولم تشر المصادر العربية إلى هذه الخطبة، ولكن « المدونة الأولى للتاريخ العام » أوردت نصها كاملا باللغة القشتالية ولا يشير أى مصدر إلى اللغة التى ألقيت بها، ومن المؤكد أن السيد كان يجيد عامية أهل الأندلس، وأنه تحدث بها، لأن جمهوره، والذين كان يعنيهم بالخطبة، من المسلمين. وننقل فيما يلى جانباً منها :

« إننى رجل لم يكن لى ملك قط، ولم يكن كذلك لأحد من قومى، ولكن منذ اليوم الذى رأيت فيه هذه المدينة وجدتها تطيب لى، ورغبت فيها، وسألت الله أن يجعلنى سيدها، فانظروا إلى قدرة الله الذى أنعم على بأن وهبنى بلنسية، وإن حكمت بالعدل وأحسنت تصريف الأمور فسيتركها الله لى، أما إن تجبرت وأسأت فسيستردها منى، فليرجع كلٌّ إلى ما له ويتملكه كما كان يتملكه من قبل، فمن وجد كَرْمه أو جنته خالصة فليعد إليه، ومن وجد حقله مزروعاً فليدفع أجر زراعته ويمتلكه كما تأمر الشريعة الإسلامية، ولا يأخذن جباة الضرائب فى المدينة أكثر من العشر كما جرى عليه العمل، وقد هيأت نفسى لأسمع الشكاوى يومين من كل أسبوع، هما الاثنين والخميس، ولكن من كانت له قضية عادلة فليأت متى شاء وسأستمع إليه، فإنى لا أحتجب عنكم، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أو لو أمركم ممن لم يُمكنكُمْ قط رؤيتهم، وأودّ أن أعالج جميع أموركم بنفسى، وأن أكون لكم رفيقاً، وأدافع عنكم كما يدافع الصديق عن صديقه والقريب عن قريبه، وسأكون قاضيكم ووزيركم، وإن شكا أحدكم من آخر أنصفته منه ».

واختتمها بقوله : « أنا لست راغباً فى دخول مدينتكم، ولا أريد أن أسكنها، ولكنى أريد أن أبنى منزلا فوق جسر القنطرة أجىء لأستريح فيه من حين لآخر، وأعدكم بأننى سوف أتنازل عنه حين يحتاج أحدكم إليه ».

سمع البلنسيون الخطبة، وغمرتهم البهجة، وصدقوا وعود السيد، غير أنهم عندما ذهبوا ليستردوا أراضيهم رد عليهم جنوده الذين كانوا على الأرض بأنهم تلقوها منه مقابل مرتباتهم لهذا العام؛ بينما تذرع آخرون بأنهم استأجروها ودفعوا الإيجار فعلا، ولما ينته موعده بعد ! فانتظر المسلمون حتى الخميس، اليوم الذى حدده السِّيد ليفصل فى الخصومات.

وجاء الخميس، وجلس **السيد** فى الحديقة على منصة، وتقدموا له بشكاياتهم

وبدأ يقول أشياء لا صلة لها بتاتاً بما كان قد وعدهم به فى الخطبة السابقة : « إذا بقيت بدون رجالى كنت كمن فقد ذراعه اليمنى، أو كمحارب بلا سيف ولاسهام، الشىء الأول الذى يهمنى فى هذا النزاع وأخبركم به، هو أنى أتخذ أفضل السبل لحماية نفسى ورجالى، لأن الله وهبنى بلنسية بإرادته الطيبة، ولا أحب أن يكون فيها سيد غيرى، ولكن إذا كنتم معى، وأردتم أن يشملكم عفوى، فكنون من **ابن جحاف**، لأنكم جميعاً تعرفون الخيانة الكبيرة التى ارتكبها ضد سيده ملك بلنسية، والشقاء الكبير الذى جعله يتعرض له، وتتعرضون له أنتم أيضاً أثناء حصاركم ».

ذهل المسلمون مما سمعوا، لقد وجدو **السيِّد** ليس بأفضل من الوعود التى قطعها لهم، فردوا عليه بأنهم سيتشاورون فيما بينهم قبل أن يقرروا شيئاً. وذهب ثلاثون منهم إلى مقابلة **ابن عبدوس** المشرف على الضرائب، وصديق السيد، يطلبون نصحه فيما يجدون من تغيّر السيد ونكثه فى الوعود، وكان رد ابن عبدوس : « أيها السادة النبلاء، النصيحة من السهل التقدم بها، لقد ارتكب **ابن جحاف** ضد سيّده خيانة عظمى، اتفقوا الآن كيف تمكن السيِّد منه، لا تترددوا ولا تخافوا شيئاً، لأنى أعرف أنكم بعدها لن تطلبوا من السيد شيئاً إلا أجابكم إليه ».

وعاد المسلمون سريعاً إلى **السيد**، يوافقونه على تسليم **ابن جحاف** ويطلبون قوة ضخمة للتنفيذ، وذهبوا جميعاً إلى بيت القاضى، فحطموا الأبواب، وقبضوا عليه وعلى كل الأسرة، وحملوهم جميعاً إلى حضرة السيد فرمى بهم فى السجن، وحُمل إليه أيضاً كل الذين شاركوا فى قتل **القادر** ملك بلنسية، ثم قال لهؤلاء الكبار : « لقد نفذتم ما أمرتكم به، فائمرون بما تريدون، سوف أنفذ لكم ما يتصل بالمزارع، شريطة أن تكون إقامتى داخل المدينة، فى القصر، وأن يقوم جنودى بحراسة كل القلاع »، وكانت هذه مخالفة ثانية للاتفاق، أحنى لها البلنسيون رءوسهم طائعين.

● ● ●

نقل **السيدُ** ابنَ جحاف إلى جبالة، وأمر بتعذيبه حتى الموت، ثم رده ثانية إلى بلنسية، واودع السجن فى حديقة القصر الذى يسكنه السيد، وهناك أمره بأن يكتب بخط يده قائمة بكل أملاكه، فسجل **ابن جحاف** كل شيء : القلائد والخواتم، والمجوهرات، والأثاث، والملابس، والديون أيضاً. وألقى السيد نظرة على القائمة، وطلب دعوة سكان بلنسية المسلمين والمسيحيين ليحلف بمحضرهم أنه لا يملك شيئاً آخر، وأن من حق السيِّد أن يعدمه إذا ظهرت له أملاك أخرى. ولم يثق السيِّد كثيراً فى يمين القاضى، كان يعرف أن **القادر** ملك بلنسية المقتول أغنى من عرفت الأندلس، وأن ابن جحّاف مازال يحتفظ بالكثير من ثروته. فأمر بتفتيش منازل أصدقائه، وهددّ بمصادرة أولئك الذين يساعدون القاضى فى إخفاء ثروته وإعدامهم، وبدأ الذين ترك ابن جحّاف عندهم شيئاً من ماله لحراسته، ثم اقتسامه بعد أن تمر المحنة، يتخلصون مما لديهم هربا من العقاب، والتماساً لعفو السيد. ثم أمر أيضاً بنبش بيت القاضى وبمعاونة واحد من خدمه وُجدت تحت الأرض ثروة ضخمة من ذهب وجواهر وأحجار ثمينة.

وأثناء ذلك جمع **السيِّد** كبار رجال بلنسية ليخطبهم من جديد : « أيها العقلاء من جماعة بلنسية، أنتم تعرفون كم خدمت ملككم وساعدته، وكم من الجهد بذلت لأربح هذه المدينة، والآن وقد شاءت إرادة الله أن تجعلنى سيِّدها، أريدها لى، ولأولئك الذين ساعدونى على ربحها، أنتم الآن جميعاً فى قبضتى، أصنع بكم ما أريد وما أراه نافعاً. أستطيع أن أستولى على ما تملكونه فى كل العالم، وعلى أشخاصكم وأولادكم ونسائكم، ولكنى لا أريد أن تجرى الأمور على هذا النحو، وإنما لخير الجميع أمرت أن يبقى الرجال الأشراف منكم ، ممن أظهروا ولاءهم لى فى بلنسية، فى نفس منازلهم مع أهليهم، على ألا يملك أى واحد منكم أكثر من بغلة، ومن خادم، ولا تحملون سلاحاً، ولا تحتفظون به فى بيوتكم إلا عند الضرورة وبإذن منى. أما البقية فعليها أن تترك المدينة، وأن تقيم فى ضاحية الكودية، حيث كنت أعيش قبلا، ستكون لكم مساجدكم فى بلنسية، وفى

خارجها، وفى الكودية، ولكم فقهاؤكم، وتعيشون طبقاً لشريعتكم، ويكون لكم قضاتكم ووزيركم الذين أعينهم أنا، وستكون لكم مزارعكم، ولكن أعطونى الحق **فى أن أحصل على كل الضرائب، وأن أشرف على القانون، وأن تكون لى عملتى** الخاصة، والذين يقبلون سيادتى ويريدون أن يبقوا معى يبقون، والذين يريدون أن يذهبوا أتمنى لهم فى مغامرتهم حظا سعيداً، على أن يذهبوا بأشخاصهم فحسب لا يحملون معهم شيئاً، ولقد أمرت بأن تكونوا جميعاً فى أمان».

وأدرك الحاضرون ما يريد **السيد**، وغمرهم حزن العاجز، فلم يكن بوسعهم غير التنفيذ، فبدأ سكان بلنسية يخرجون من المدينة بنسائهم وأطفالهم، عدا أولئك الذين رضى عنهم السيد، وفى نفس الوقت فإن عدداً من أتباعه فارق الكودية ليقيم فى المدينة مكان الذاهبين، وكانت أعداد الخارجين والوافدين كبيرة، واستمرت طوال يومين كاملين.

واصبح **السيِّد** سيِّد بلنسية المطلق، ولم يعد يحلم بشىء أكبر من الحكم بالطريقة الأشد قسوة وإرهاباً، ومضى فى طغيانه فقرر أن ينتقم من القاضى **ابن جحاف** وأهله، بعد «أن استصفى أموالهم، واستنفد أحوالهم، فلم يترك لهم لا ظاهرا ولا باطناً». فقرر أن يقتله حرقا. فأمر بإضرام النار، وحُشر الناس مسلمين ومسيحيين، وسيق القاضى يرسف فى قيوده، وأهله وبنوه حوله. وحُفر للقاضى حفرة وأدخل فيها إلى حُجزته، وسوّى التراب حوله، وضمت النار إليه، فلما دنت منه، ولفحت وجهه قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم ضمها إلى جسده، لتكون أسرع فى إنهاء حياته، ولفظ أنفاسه الأخيرة وسط آلام مريعة، رحمه الله تعالى!

ومتعطش إلى الدماء، كما يقول **دوزى**، أراد **السيد** أن يحرق أيضا زوجه، وابنه وبناته، وسائر أسرة **بنى جحاف**، فضج الناس غاضبين وراجين، ومعهم حتى جنود السيد، وتشفعوا عنده أن يرحم على الأقل النساء والأطفال، وقد رفض

فى البدء أن يستجيب لشفاعتهم، غير أنه قبل فى النهاية أن يستثنى النساء والأطفال. وعمد إلى الجلة من أهل بلنسية فثقّفهم وأغرمهم، واستأصل جميع ما عندهم، وجعل الناس فى المحنة سواء، وأحرق عدداً آخر منهم، بينهم الشاعر الرقيق **أبو جعفر البتى**، لسبب غير معروف، وربما طيشا دون حاجة إلى سبب.

كان لابن جحاف خلال حياته أعداء كثيرون، وكانت تصرفاته تتسم بالخفة والرعونة، لكن إحراقه ارتفع به إلى منزلة القديسين فى نظر البلنسيين، وجعل منه شهيداً فى نظر المسلمين والمسيحيين، وحتى خصومه نسوا أخطاءه القديمة فبكوه، ولم يعودوا يذكرونه إلا بالثناء الفيّاض. وتم إحراق القاضى فى شهر مايو ١٠٩٥ م. وحاول أهل بلنسية الثورة على السِّيد، ولكنه أخمدها سريعاً، وبنفس القسوة.

أحسّ **السيد** بأنه أصبح السيد المطلق، فجعل من المدينة مقره العسكرى، وتصرّف كما يتصرف الملوك المتوّجون، وأراد أن يستريح بعض الشىء فأرسل فى طلب زوجه وأبنائه الثلاثة، وهم **دييجو**، ومات عام ١٠٩٧ فى زهرة شبابه إثر الهزيمة التى أنزلها المرابطون بجند قشتالة فى قنيشرة، وفتاتان هما : **كريستينا وماريا**، تزوجت الأولى بعد ذلك بأعوام الأمير **راميرو دى نبرة**، وتزوجت الثانية **رامون بيرنجر الثالث** كونت برشلونة، وكان زواجهما يمثل الغاية التى انتهت إليها حياة السِّيد.

رُوّع الأندلس لسقوط بلنسية فى يد السيد، كما روّع من قبل لسقوط طليطلة فى يد ألفونسو، وأرسل المسلمون إلى **ابن تاشفين** أمير المرابطين يطلبون عونه، فقرر أن يسترد المدينة، وندب ابن أخيه **محمد بن تاشفين** ليقود الحملة، وكتب إلى حاكم غرناطة وإلى أمراء شرقى الأندلس أن يجمعوا الجند، ويسيروا لاستعادة بلنسية، وعبرت الجيوش المرابطية من سبتة فى المغرب فى سبتمبر ١٠٩٤، أى لأربعة شهور من سقوط المدينة، وسارت القوات المتحدة صوب بلنسية وعسكرو فى «ملانة» غربى بلنسية، وصلوا عيد الفطر هناك، ثم بدأوا الهجوم.

وقد أدرك القائد المرابطى شدة تحصين المدينة، وكان الأمل فى مساعدة تأتى من الداخل معدوماً، فقد جرد **السيِّد** المدينة من كل عناصر المقاومة، أخرج منها من شك فى ولائهم له، وجردها من سائر السلاح فلم يبق فيها من يملك مساراً من الحديد، فقرر أن يضرب حولها الحصار، نفس السلاح الذى استخدمه السيِّد من قبل. واستشار السيد منجمّه، وزجر طيره، ثم أطمأن للنصر، وأشاع الخبر بين جنده، وخلال ذلك أرسل يطلب عون **بدرو الأول** ملك أرجون، **وألفونسو السادس** ملك قشتالة، غير أنه لم يعلق على عونهما كثيراً، فقد كان يعرف المشاكل الداخلية الكثيرة التى تقيد حركتهما. ومن ثم سارع إلى الهجوم، فخرج بقواته ليلا، بعد أن خدع المحاصرين، وفاجأهم بشدة، فأوقع الذعر والاضطراب فى صفوفهم، فتراجعوا مسرعين، واستولى منهم على غنائم عظيمة من الخيل والسلاح والمؤن والملابس والأموال، وقُتل من المسلمين عدد كبير، ثم عاد إلى المدينة فامتنع بداخلها من جديد.

وبدأ **السيد** يحلم بدولة أكثر اتساعاً، فأخذ يهاجم ما حوله من حصون وقلاع ويستولى عليها إن استطاع. وركز بصفة خاصة على قلعةOlocau ، فقد كان يعتقد أن فيها جانبا كبيراً من ثروة **القادر** ملك بلنسية السابق، هرّبه إليها قبل مقتله، وكان السيد نهما إلى المال يريده بأى ثمن، وعلى وعى كامل بدوره فى الحياة، وفى مثل ظروفه على نحو خاص. غير أنه كان يحس بأن حياته قاربت النهاية فبدأ يصلح ما بينه وبين السماء، ببناء الكنائس، والإغداق على الأديرة، « ذلك الذى أحرق عدداً كبيراً من الناس أحياء، وآمن بالعرافة، وعمل جُل حياته مقاتلا فى خدمة أمراء مسلمين ». وتوّج عمله مخالفا نصوص وروح كل الاتفاقيات، فحوّل مسجد المدينة الجامع إلى كاتدرائية وأطلق عليها اسم « سانتا ماريا » وأهداها كأساً أنيقة من الذهب وسجادتين مزركشتين من أروع ما رأت العين. وعندما جاءته الأنباء بأن ابنه الوحيد **دييجو** قُتل فى المعركة التى دارت بين **ألفونسو** ملك طليطلة وبين جيش المرابطين، وكان النصر فيها

للمسلمين، سقط مريضاً، ورغم مرضه أرسل فرقة من الجيش إلى شاطبة، لتنتزع المدينة من المرابطين، فاصطدمت بجيش المرابطين بقيادة **ابن عائشة**، وكان عائداً لتوّه من معركة مع قوات ألفونسو بقيادة **ألبار هانيبيث**، انتصر عليهم فيها قريباً من قونقة، ولم يكن جنود السيد بأسعد حظا من جنود الملك، فكانت هزيمتهم ساحقة، ولم يعد منهم إلا القليل، وأصبح الطريق إلى بلنسية مفتوحا لمن يريد. وهكذا فإن الجيش الذى عُرف بأنه لا يُقهر أبداً قُهر فعلا، وكانت الهزيمة ضربة قاصمة للسيد فمات غما وكمدا وحزنا فى العاشر من شهر يولية عام ١٠٩٩ م، وهو فى السادسة والخمسين من عمره.

حاولت **دونيا خيمينا** أرملة السيد أن تدافع عن بلنسية ضد هجوم المرابطين عملا بمشورة الحاشية التى كانت تحيط بزوجها، واستطاعت أن تصدهم على امتداد عامين. غير أن المرابطين شددّوا الحصار، وضيقوا الخناق على المدينة بجيش كبير للغاية، تحت قيادة الأمير **أبى محمد المزدلى**، فأرسلت خيمينا المطران **خيرونيمو**، من أصل فرنسى، إلى بلاط الملك **ألفونسو** يرجوه المساعدة، وأثرّ الأسقف فى الملك، كما أثرّ من قبل فى السيِّد فجعله يحوّل كل المساجد إلى كنائس، فأسرع يقدم لها المساعدة، ولم يصطدم المرابطون بالجيش القشتالى القادم، وآثروا أن يستمروا فى حصار المدينة دون قتال، ورأى ألفونسو ما عليه الجيش الإسلامى من ضخامة، فلم يرد أن يغامر فى معركة لا يضمن نتائجها، وفى بلد بعيد عن مملكته، فنصح خيمينا، بأن تغادر المدينة، فعزمت على الرحيل ومعها أغلبية المسيحيين، خرجت ومعها ذخائر **القادر بن ذى النون** ملك بلنسية السابق؛ والأموال الهائلة التى غنمها زوجها السِّيد خلال غزواته ومغامراته، ثروات هائلة سوف يستولى ألفونسو على جلهّا فيما بعد، وخرج معها ألفونسو وجنوده، وحملت معها جثة زوجها بعد أن نبشت قبره فى ٥ من مايو ١١٠٢ م.

لقد كانت بلنسية مدينة جميلة، فعزّ عليهم أن يتركوها للمسلمين

يستمتعون بها بعدهم، فأسلموها للنار والدمار، ولم يغادروها إلا بعد أن أصبحت أطلالا دارسة، وكان على المرابطين أن يحوّلوا الخرائب والأنقاض إلى مدينة جديدة تضج بالحياة والناس، وهذا ما كان.

ذهبت **دونيا خِمينا** لتعيش فى قشتالة، وحملت معها جثمان السيد، لقد طُرد من هناك منفيًا، ولم يقدر له أن يعود إلى مسقط رأسه إلا جثة هامدة، ودفن فى فناء كنيسة سان بطرس فى كاردينيا، قريباً من برغش، ولم تعش بعده غير خمسة أعوام، لأنها توفيت فى ١١٠٤م وبقى السيد مدفوناً فى مكانه، ثم بدا لألفونسو العالم أن القبر دون ما يستحق، فمن نسله ينحدر بعض ملوك إسبانيا، فشيّد له عام ١٢٧٢م قبراً جديداً، وبعد ذلك، فى عام ١٤٤٧م، جُددّت الكنيسة، فَوُضعت جثة السيد فى لحد جديد ينهض على أربعة تماثيل لأربعة أسود، وفى عام ١٥٤١م نُقلت إلى جانب الحائط، فقد استكثروا عليه أن يقوم ميتاً على أكتاف أربعة أسود، غير أن شارل الخامس، أصدر أمره بأن يوضع فى القاعة الرئيسية للكنيسة لما هو عليه من شهرة ونبل وبطولة.

وفى عام ١٨٣٥ م، اجتاحت إسبانيا عادة الاعتداء وسرقة الآثار الهامة، دينية وسياسية، ولم تنج من هذا الاعتداء لا جثة السِّيد، ولا جثة خايمة الأول ملك أرجون، فنقلت جثة السِّيد إلى كتدرائية برغش الكبرى عام ١٨٤٢، ولا تزال فيها حتى الآن، ولو أن رهبان دير كاردينيا يطالبون به، بعد أن أصبح قبر السِّيد مورداً هاماً من موارد السياحة فى المدينة، فما من إنسان يهبط برغش إلا ويذهب لرؤيته متأمِّلا أو مترحِّما.

لقبان : السِّيد والقنبيطور

اسمه الحقيق **رودريجو دياث دى بيبار** Rodrigo Diaz de Vivar وكلمة رودريجو وردت فى الوثائق الأندلسية تحت صورة **لذريق** فى المصادر الأوى القريبة من الفتح، مثل « أخبار مجموعة » لمؤلف مجهول، « وتاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية، وغيرهما. وفى صورة **رذريق** فى المصادر المتأخرة، كمؤلفات ابن الأبار، و« الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام، ذلك أن الوافدين أصبحوا أكثر فهماً وتمكنا من اللغة الرومانثية، وتبينا لحروفها، لكن الفارس الأندلسى دخل التاريخ بلقبين أكثر ذكراً ودوراناً.

أول اللقبين كلمة **السِّيد** El Cid ، ولا تأتى فى الملحمة إلاّ مضافة إلى ضمير المتكلم سيدى mio Cid ، وأكثر الاحتمالات رجحاناً أن السِّيد حمل هذا اللقب فى سن مبكرة من حياته، حين كان فى خدمة **المؤتمن** ملك سرقسطة، وبالتحديد فى عام ١٠٦٣م، وله من العمر عشرون عاماً تقريباً، فى ذلك الوقت خاض أول معركة حربية ضارية إلى جانب المؤتمن ملك سرقسطة، ضد **رامبرو الأول** ملك أرجون، وأبدى براعة حربية فائقة، وشجاعة متفوقة نادرة، فأطلق عليه جنود المؤتمن لقب السِّيد، وثمة رواية أخرى غير ذات ثقة جاءت فى « المدونة العامة » ومؤداها أن اللقب أطلق عليه بعد استيلائه على بلنسية، فحين دخلها ظافراً احتفل بالمناسبة مع جنده احتفالا مهيباً، « ومن اليوم أصبح يدعى السِّيد El Cid ، سيدى mio Cid ، القنبيطور El Campeador صاحب بلنسية » وهو احتمال بعيد يعنى أن اللقب جاءه فى أواخر حياته، لأن الاستيلاء على بلنسية جاء متأخراً نتويجاً لسلسلة من الانتصارات الحربية المتوالية، واتخذ طابعاً معادياً لأهلها، وعقب حصار عنيف، وإذلال مهين، وفيه تنكر السِّيد

لعهوده، وتراجع عن وعوده، فلم يكن ثمة ودّ أو تقدير أو إعجاب يدفع سكانها إلى تمجيده، وإضفاء لقب السيادة عليه، والجند الذين كانوا معه ليسوا جند يومهم، إنما هم معه من زمن طويل، وشاركوه كل ما خاض من معارك، وحاز من انتصارات.

يكاد العلماء يجمعون على أن سيدى mio Cid هى صورة أندلسية للفظ سَيِّدى فى الفصحى، بمعنى مولاى، ثم نقلت إلى الإسبانية بهذه الصورة، ثم صار اللقب علماً عليه معرّفاً بالأداة El Cid غير أن ثمة شكاً كبيراً يراودنى فيما يتصل بهذا التفسير، ومعنه أن اللقب أطلق عليه وهو فى سن فتية، وكلمة سيّد من الكلمات التى ترتبط بالسن فيما هو مرعىّ من التقاليد العربية، فلا تقال إلا لمن بلغ مبلغ الرجال، حين تأتى من حر ولو كان تابعاً، ولا تقال فى أى سن إلا من الأدنى، أو من الأرقاء قانوناً أو واقعاً، والجنود الذين أطلقوها على السيد لم يكونوا أرقاء له، ولا أدنى منه سناً، وإنما كانوا مجرد معجبين. ورسم الكلمة فى القشتالية لا يجرى مع نطقها الأندلسى، فالأندلسيون ونستطيع أن نتصور لهجتهم - إلى حد ما - فى ضوء اللهجة المغربية، وعلى نحو أوضح وأدق فى ضوء اللهجة الجزائرية، المنعزلة وغير المتأثرة بالفرنسية، وبخاصة فى الأمكنة المأهولة بمهاجرين أندلسيين، لا ينطقون كلمة سيدْ cid إلا مضافة إلى الضمير، فيقولون سيدى cidi ، فإذا أضافوها إلى غير الضمير حذفوا منها الحرف الأخير، أى الدال، تخففاً، فهم يقولون سي Ci ، إما إذا لم تكن مضافة فنجرى على النحو العربى الفصيح، فيقال سيِّد Sayyed ، بقى أن نذكر أن المصنفات التاريخية القشتالية القديمة، قليلا ما تطلق لقب السيِّد على الفارس الأندلسى، ولا نجد له ذكراً فى المصادر العربية، إنما اللقب الشائع الذى يطلق عليه عادة هو « القنيطور ». ولا تعرف هذه الوثائق أيضاً كلمة سيد Cid بمعنى سيِّد، وما وجد فى العصور المتأخرة من أسماء

إسبانية على صورة سيد، فإنما جاءت تقليداً للقب الذى عُرف به لذريق، دون أن يقع فى خاطرمن أطلقوه، أو ينادون به، المعنى الذى يرمز إليه، إنما تستخدم هذه الوثائق كلمة سيدى مرسومة فى هذه الصورة Cidi حين يراد منها معنى السيادة صفة، أو علماً منقولا، ونجد فى ملحمة السيِّد نفسها كلتا الكلمتين، كلمة السيد El Cid، أو سيدى mio Cid علماً عليه، وكلمة سيدى Sedi صفة تسبق العلم.

أما الذى أراه فهو أن كلمة **السيد** التى أطلقت على **لذريق**، ليست تطوراً صوتياً لكلمة سيِّد، وإنما هى كلمة أصيلة وقديمة لم يدخل عليها أى تحوير، وتعنى الذئب، أو الأسد فى بعض الإشارات، وقد جاءتنا بالمعنى الأول فى شعر **أبى دواد الإيادى**، شاعر جاهلى من القرن الخامس الميلادى، يصف فرسه فيقول :

رفيع المعدِّ، كَسِيد الغضا   تميم الضلوع بجوفٍ رحب[١]

وقد يراد بها حين إطلاقها على **لذريق** كلا المعنيين، فقد كان له من صفات الأسد والذئب نصيب، واتخاذ كلمة السِّيد بمعنى الذئب علماً أمر كان شائعاً فى الأندلس، فى الجانبين الإسلامى والمسيحى، فى اللغتين العربية والرومانثية. فلدينا فى العربية مثلا **ابن السِّيد البطليوسى**، العالم اللغوى الفيلسوف، المتوفى عام ١٠٥٢م، وتكثر كلمة **لويث Lopez** فى القشتالية، ومعناها ابن الذئب، مشتقة من كلمة لوبو **Lopo** ومعناها الذئب. وإذا كانت كلمة السِّيد، بمعنى الذئب، قد أطلقت على لذريق، وشاعت من بعده اسماً لشخصيات عديدة، مراعى فيها المعنى الأصلى أو تيمناً بلذريق، فإن كلمة Luobo أو Lupo القشتالية دخلت العربية الأندلسية، وأصبحت تطلق اسماً فى

(١) المعد : الجنب. السيد : الذئب. راجع القصيدة فى كتابنا : امرؤ القيس : حياته وشعره، ص ١٣٧، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٩.

صورة مكبرة، ولدينا عدد من الشخصيات يحملون هذا الاسم، أشهرهم أسرة **بنى لُبون** Lobon أو Lupon ، وكان لهم دور فى حياة بلنسية السياسية، وما جاورها من مدن وإمارات فى الفترة التى سبقت دخول السِّيد المدينة. ولدينا أيضاً من بنى قسى سادة الثغر الأعلى، **محمد بن لُب**، وكان مسلمو الأندلس وهم يطلقون هذا الاسم يعرفون ما يعنيه فى اللغة الرومانثية، يقول المقّرى فى «نفح الطيب» : «وها - أى الأندلس - سبع يُعرف باللب، أكبر بقليل من الدئب، فى نهاية القحة، قد يفترس الرجل إذا كان جائعاً».

أما لقب **القنبيطور** فأقدم من لقب السِّيد، وعرف له منذ بدء حياته السياسية، فعندما توفى **فرناندو الأول** ملك قشتالة عام ١٠٦٥م، وقُسِّمت مملكته بين أولاده الأربعة، وأصبحت قشتالة من نصيب **شانجه الثانى**، كان أول ما فعل أنه عين ربيبه لذريق فارسا، أو قائداً للجيش الملكى بلغة العصر الحديث، وأتيحت الفرصة سريعاً للذريق كى يدافع عن المصالح القشتالية عند حدوث الخلاف بين مملكتى نبَرة وقشتالة، وكان الطريق إلى إنهائه إما تحاكم قضائى، أو مبارزة حربية، طبقاً لتقاليد العصر. وكان على السيد، فارس الجيش القشتالى، أن يدخل فى مبارزة مع فارس الجيش النبرى، **خيمينو جرثيس**، وانتصر عليه. حينئذ أُطلق عليه اسم Campi doctor . وتُنطق فى اللهجة الرومانثية قنبيطور Campeador أى الذى انتصر فى ساحة المعركة، غير أن هذا اللقب أصبح ينصرف أول ما يطلق إلى رودريجو دياث دى بيبار.

ويرد فى المصادر العربية على صور مختلفة، ولكنها متقاربة، فنجد كلمات قنبيطور، وقمبيطور، ثم الكَنْبِيْطُور، وهى أقربها إلى اللهجة الرومانثية نطقاً،

ونجدها عند ابن بسام فى كتابه الذخيرة، وكان معاصراً للسيد[١].

التفسير الذى قدمناه للقَّب هو أحدث التفاسير، وصاحبه **لويس دى بلْديا بيانو** الأستاذ فى كلية الآداب بجامعة مدريد، والحجة فى تاريخ إسبانيا فى العصر الوسيط، وأورده فى القسم الثانى، من الجزء الأول من كتابه «تاريخ إسبانيا»[٢]. غير أن الأمر ليس بالبساطة التى تبدو للوهلة الأولى، فقد أثار اللقب كثيراً من المشاكل، ودار حوله العديد من الدراسات.

كان خوان **فرانسيسكو مسديو** (١٧٤٠-١٨١٧م) أول من أثار المشكلة فى كتابه الممتاز «التاريخ النقدى لإسبانيا والحضارة الإسبانية»، وقد رأى أن هذا اللقب لا يوجد فى مؤلفات ما قبل القرن الثالث عشر، ولا يعنى تمجيد صاحبه، وكل ما يفهم منه أنه يطلق على شخص يُكثر من الإغارة على بلد عدو، فصاحبه مجرد قائد لمجموعة خفيفة من الفرسان وليس جنرالا، أى أن كلمة **قنبيطور** لا تعنى أكثر من مجرد جندى مغامر ومقدام، ولكنه لا يعرف كيف يقود الحرب بطريقة عالمة، وفى سلّم العاملين فى جهاز الحرب، هو فى أدنى درجات الموظفين. وإذا كانت وجهة نظر العالم الإسبانى مقبولة فيما يتصل بالتفسير إلا أن لنا ملاحظة عليها فيما يتصل بتاريخ استخدام الكلمة، فهى أقدم من التاريخ الذى حدده بدءاً لوجودها فى المصادر، فنحن نجدها فى كتاب **ابن بسام** الشنترينى، وقد أشرنا إليه من قبل، وهو من مؤرخى الأدب الأندلسى فى القرن الحادى عشر، غير أن اكتشاف مؤلَّفه والإفادة منه جاء

---

(١) انظر دراستنا لابن بسام وكتابه الذخيرة، فى كتابنا: «دراسة فى مصادر الأدب»، الطبعة السادسة دار المعارف بمصر ١٩٨٣.

(٢) L. de Valdeavellano: Historia de Espana. Tomo I. Segunda parte, p. 312, 2 edicion, Madrid 1955.

متأخراً للغاية، فى نهاية القرن الماضى ومطلع هذا القرن، ومن ثم فهى هفوة لا تحسب عليه فى مجال البحث والتدقيق.

ويرى **هوبير** M.Huber أكثر الكتاب تعقلا، أن الأمر معقد، ومن الصعوبة بمكان أن يدلى فيه المرء برأى قاطع. غير أنه يصرح، من جانب آخر، بأن كلمة **قنبيطور** Campeador لا صلة لها بكلمة Campus اللاتينية بمعنى بطل، وإنما هى مشتقة من الكلمة الجرمانية القديمة Champh بمعنى المبارزة، ومنها انتقلت إلى كافة اللغات الرومانية : الفرنسية، والإيطالية، والبرتغالية، والإسبانية، والبرفنسالية، والقطلونية، وأخذت فى كلٍّ نبرا معيناً، وهجاء مختلفاً، بينما بقيت أصولها واحدة فى الجميع.

ويزيد **دوزى** الأمر توضيحاً، فيرى أن الاعتقاد الشائع بأن كلمة **قنبيطور** Campeador مرادفة لكلمة Champion الفرنسية بمعنى بطل خاطئة، لأن كلمة Le Champion فى العصور الوسطى تعنى إنسانا يذهب من مكان إلى آخر ليؤجر خدماته فى قتال مشروع، وهو يقاتل راجلا دائما، فلا يمتطى جواداً أبداً، ولا يستخدم من السلاح غير العصا والترس، ومهنته شائنة، لأن القانون يضعه فى نفس المستوى الذى يضع فيه اللصوص والنساء العاهرات. ولقد كان الحق، بهذا الفهم، مع مَسديوُ حين رأى أن كلمة القنبيطور لقب مهين.

ويرى **دوزى** فى بحثه، وقد التقط الخيط من **هوبير**، وفى ضوء تمكنه القوى من اللغة العربية، ومعلوماته الواسعة المنظمة عن الأندلس وتاريخه وأدبه، أنها تعنى المنازل أو المبارز ومعانى أخرى. والمنازلة والمبارزة معنى استعاره المسيحيون من المسلمين الأندلسيون، فقد جرت عادة العرب من قبل، واحتذى بهم المسلمون فيما بعد، عندما يلتقى جيشان للقتال أن يقفوا صفوفا أو خطوطا أو كتلا متراصة، ثم تبدأ المعركة بلقاء فردى يقوم به الأبطال

المتازون، حين يتقدمون الصفوف، ويطلبون المبارزة، واحداً منفرداً، أو أكثر من واحد مجتمعين، ولا شيء يضع المرء فى القمة، بطولة وشجاعة وإقداما، كأن يدعو العدو إلى المبارزة، أو يقبل تحديّه، وحفظ لنا التاريخ الإسلامى عدداً من كبار المبارزين، مثل حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وعلى بن أبى طالب، وآخرين.

وأمسك **دوزى**، فى ذكاء، برواية أوردها المؤرخ الأندلسى العظيم، أبو بكر محمد بن الوليد، **الملقب بالطرطوشى**، نسبة إلى بلده طرطوشة فى مقاطعة سرقسطة، فى مؤلفه «سراج الملوك» عن السياسة ونظم الحكم، وكتبه خلال إقامته فى مصر، وأهداه إلى أميرها **المأمون البطائحى**، وتوفى فى الاسكندرية عام ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م، أى أنه يعتبر على نحو ما معاصراً للسيد. يقول: «كان بسرقسطة فارس يقال له **ابن فتحون**، وكان يناسبنى فيقع خال والدتى، وكان أشجع العرب والعجم، وكان **المستعين** أبو المقتدر يرى له ذلك، ويعظمه. وكان يجرى عليه فى كل عطية خمسمائة دينار، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه، وهابت لقاءه؛ فيحكى أن الرومى إذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له: اشرب؛ هل ابن فتحون رأيت فى الماء؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، فأوغروا به صدر المستعين، فمنعه أياماً. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز علج إلى وسط الميدان ينادى: هل من مبارز؟. فخرج إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومى، وصلح الكفّار سرورا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الرومى يكرّ بين الصفيّن وينادى: هل من اثنين لواحد، فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومى، فصلح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل يجول بين الصفين وينادى ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يستجرىء أحد من المسلمين أن يخرج إليه، وبقى الناس فى حيرة. فقيل للسلطان: مالها إلا **أبو الوليد بن فتحون**، فدعاه وتلطف به، وقال له:

أما ترى ما يصنع هذا العلج ؟ . فقال : هو بعيني. قال : فما الحيلة ؟ قال أبو الوليد : فماذا تريد ؟. قال : اكفف المسلمين شره. فقال : الساعة يكون إن شاء الله تعالى. فلبس قميص كتان، واستوى على سرجه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطاً طويل الطرف، وفى طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه، فعجب منه النصرانى، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه، فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون، وإذا بابن فتحون متعلق برقبة الفرس، ونزل إلى الأرض لا شيء منه فى السرج، ثم طفر على سرجه، وحمل عليه، وضربه بالسوط فى عنقه، فالتوى على عنقه، فجذبه بيده من السرج، فاقتلعه من سرجه، وجاء به يجره فألقاه بين يدى المستعين، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه معه، فأكرمه ورده إلى أحسن أحواله ».

فالمبارز المسلم، وهو **ابن فتحون** داخل جيش **المستعين ملك** سرقسطة، يقابله المبارز المسيحى، وهو **لذريق دياث دى بيبار** داخل جيش **شانجه الثانى ملك** قشتالة، إذن فكلمة قنبيطور Campeador تساوى تماماً كلمة مبارز العربية، وهو معنى يدعمه أن اللقب أطلق على السيد فى مبارزة له مع فارس نبرى، كما أشرنا إلى ذلك فى البدء[1] ويؤيد هذا الرأى أن المعجم الإسبانى، الصادر عن المجمع اللغوى الملكى، يجعل لكلمة قنبيطور معانى متعددة من بينها : « من يواجه التحدى ويبرز إلى لقاء العدو فى المعارك الحربية على الطريقة القديمة »، أى المبارزة فى مفهومها العربى.

أما المؤرخون العرب فى العصور الوسطى فيفسرون القنبيطور « بصاحب الفحص » أى قائد الغارات فى السهول، الخبير بالغزوات فى أرض الأعداء، وهو تفسير يرفضه مننديث بيدال، ويراه معيبا فى حق السيد

---

(١) انظر ص ١٣٠ وما بعدها.

السَّيد إنساناً

آثرت أن أقول إنسانا لأنى أريد أن أتحدث عنه فى هذا الإطار، أى مجموعة من الفضائل والنقائص التقت فى كيان واحد هو السَّيد، لم يكن ملاكا مبرأ من العيوب، ولم يكن شيطانا صيغ من شرور، وإنما كان فيه ما فى البشر من خير وشر. وحديثنا عنه وصف تقريرى، لا يستهدف الحكم عليه أو تقييم أخلاقه، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الفضيلة والرذيلة دقيقة جداً، متحركة وغير ثابتة، وما يكون فى عصر فضيلة يكون فى آخر قبحا لا يغتفر. وفى العصر الواحد ما يكون فى لحظة إثما فاضحا، يكون فى غيرها خليقة محمودة، وإذن فلست مع الذين جعلوا من السَّيد مجرد قاطع طريق، متمرد خارج على القانون. ولست مع الذين يريدون أن يجعلوا منه بطلا قوميا، مفكراً، صاحب دعوة وطنية ورسالة، ولم يكن كذلك لا واقعا ولا تاريخا. لقد حاولت، محايدا وموضوعيا، أن أكتب فيما مضى صفحات من تاريخه العام، أو السياسى إذا شئت الدقة، معرضا عما فى الأساطير من مبالغات، ومتجاوزاً الأراء غير العلمية. وبنفس الروح والمنهج : أحاول أن ألقى شيئا من الضوء على السَّيد الإنسان.

والمشكلة التى يواجهها الدارس لهذا الجانب من حياة السَّيد، أن السيد فى الملحمة غيره فى التاريخ، غيره فى الشعر، وأحدهم لا يحل مكان الآخر على نحو مفاجئ ومتميز، وإنما يكون الانتقال بين النماذج الثلاثة ناعما ومتدرجا، ولقد وقفت عند المصادر الثلاثة، لم أحتقر بدءا أى واحد منها، ويخيل إلىّ أن السيد فى الأشعار الشعبية أقرب الثلاثة إلى الحقيقة، نعم، ليست الحقيقة خالصة، ولا كاملة، ولا دائما، ولكنها الحقيقة على أى حال. لقد أصبح السيد بعد

نصف قرن من موته بطلا، بطلا شعبيا، كانت سيرته تقدم مادة طيبة، لخيال شعبي ساذج، لكي يصوغ منها الملحمة التي يريد، واستطاع هذا الخيال باتساعه وواقعيته أن يكون قريبا من عقول الناس وأذواقهم، وأن يضع التاريخ الحقيقي في زوايا النسيان، وأصبح من العسير الآن، إن لم يكن مستحيلا، الفصل بين التاريخين.

كان **السيد** بطلا شعبيا، ولم يكن قوميا، لأن الوطنية لم تكن عرفت بعد، ولم تكن اللغة على أيامه تعرف كلمة تعبّر عن هذا المعنى، والفارس في الأندلس لم يكن يقاتل من أجل وطنه أو دينه، وإنما - مثل السيّد - يقاتل من أجل الحصول على لقمة الخبز، وليس يهم بعدها أن يقاتل مع أمير مسيحي، أو تحت راية أمير مسلم، أو مستقلا حين يستشعر القوة والاستقلال عن هؤلاء. ولم يكن السيد وحده، من بين جيله، هو الذي سار في هذا الطريق، وإنما سبقه وتابعه فيه كثيرون من الفرسان، ارتقوا إليها من عامة الشعب أو كانوا أصلا أمراء ونبلاء. فالكونت **غرسية أوردونييث** معاصر السّيد وعدوه اللدود، والرجل الثاني في بلاط **ألفونسو السادس** ملك قشتالة، انتقل إلى خدمة المرابطين، وقاتل تحت رايتهم بعد معركة سالتريس في عام ١١٠٦م، وبعد ذلك بقرنين ونصف من الزمان كان الأمير **دون خوان مانويل**، صاحب كتاب حكايات «الكونت لوكارنو» يقاتل ضد ملكه مع قوات المسلمين. وكان مفهوم الفروسية في العصور الوسطى في بقية دول أوربا شيئاً مختلفا عن هذا تماما، كان يعني أن يكون الفارس مسيحيا مخلصا، يتعهد بالدفاع عن الكنيسة، وبالخضوع لها دواما، وأن يقاتل الكفرة بلا هوادة، ويؤدي جميع واجباته الإقطاعية، فيخلص النية لسيّده، ويدافع عنه، وعن شرفه مهما كلفهما الأمر، واختلاف الأمر بين بقية أوربا والأندلس، يدعم ما أشرنا إليه قبلا، من أن الناس جميعا كانوا أندلسيين، مسلمين ومسيحيين، رغم فارق الدين.

كان **السيِّد** يعيش مُثُل عصره وفضائله، ومن تحميل الأمور فوق طاقتها أن نطالبه بمشاعر ومُثُل لم تعرفها الإنسانية إلا بعده بزمن طويل. كانت فضائل عصره فى أوربا حربية فحسب، وفى الأندلس حربية وعلمية،وحاز السيد الجانب الأول بأكمله وبرَّز فيه. فهو محارب ممتاز، يعرف كيف يقاتل، على نحو لم يتأت لغير القليل من فرسان عصره، وتميّز بالعنف والخشونة والقسوة ،وظل حتى آخر يوم من حياته مغلقا فى وجه المشاعر الطرية، كان يدرك أنها بداية العفس عند الحكام والقادة، والخطوة الأولى فى طريق سهل منزلق ممتع، ينتهى بصاحبه إلى الخراب والدمار. وفى أول حديث له مع أعيان بلنسية قال إنه لن يُشغل عن مصالحهم بما كان يشغل به ملوكهم من قبل، من الموسيقا والشراب والنساء.

كان، دون ما شك، أقوى فرسان القرن الحادى عشر، اجتمع تحت لوائه كل متمرد على أميره، أو منفى من ملكه، أو غاضب على المجتمع، أو شغوف بالقتال، أو باحث عن لقمة العيش، من المسلمين والمسيحين على امتداد الأندلس العريض، وهم جميعا، والسِّيد على رأسهم، فى خدمة من يدفع مقابلا أكبر ،يستوى فى ذلك أن يكون الطلب من أمير مسلم أو أمير مسيحى، وهم يقاتلون دفاعا عن الإسلام بنفس الحماسة التى يقاتلون بها دفاعا عن المسيحية، الشىء الوحيد الذى يهمهم المرتبات التى يقبضونها والنهب الذى يقومون به، وانتهى به الأمر قائداً مستقلا يقاتل لحسابه، ويقف ضد كل من فى الأندلس، ويتحرك بوحى من مصالحه وحدها. رجل حرب يحلم دائماً بالمعارك والقتال، نبيل جاء إلى الحياة فقيرا فهو نهم إلى الثروة والمال، قائد متمرد، بلا قلب ولا قانون، يدنس الكنائس، ويهدم المعابد، يحرق سجناءه أحياء، أو يمزقهم بالسواطير، قاس لا يرحم، ولقد خرب بأشد طرق التدمير قطاعة المقاطعة التى ولد فيها، ونسب إليها، وأمضى طفولته فى قصور ملكها. وحياته

مزيج من التعقل والشجاعة، ومن الخداع والجرأة، صاحب حيلة لا يقف بها عند الحرب والقتال، وإنما يستخدمها فى جمع المال، لقد احتال على يهوديين من برغش، فاقترض منهما مبلغاً كبيراً، رهنهما فى مقابله صندوقين مملوءين رملا، وأوهمهما أن بداخلهما كل ثروته، وأمرهما بالا يفتحاهما قبل عام، ولم يُعد إليهما ما اقترض منهما أبدا لا تاريخا، ولا فى الملحمة.

يخون إذا اقضت مصلحته، ويخلف وعده إذا كان ذلك فى صالحه، ويتراجع عن كلمته إذا كان العدول عنها يعنى مزيدا من المال، وقد مكر بألفونسو السادس ملكه، ومكر بمسلمى سرقسطة وعاش بينهم بجنده سبعة عشر عاما متوالية، ومكر بكل الدين فى شبه الجزيرة، وكانت الجماهير المطحونة بالفسدة من الحكام والطغاة من القادة، والمنحرفين من رجال الدين، تعجب به، وترى فى تحركه ثاراً لمظالمها، ولا بأس بعد ذلك أن يكون قاسيا، مادام يثأر لها ممن لا تستطيع منهم قصاصا.

هل كان **السَّيد** فى حياته كاثوليكيا؟. أما أنه وُلد لأبوين كاثوليكيين فأمر لا شك فيه. وأما أنه كان كاثوليكيا مؤمنا وطيبا ففيه شك كبير، فحتى العامين الأخيرين من حياته ليس فى تصرفاته ما يوحى أبدا أنه يستهدى المُثل المسيحية فى مواقفه، ولا نجد شاهدا تاريخيا آخر يومئ بأنه كان ذا حمية كاثوليكية، وقد بذل **منندیث بیدال** جهدا كبيرا فى أن يجعل منه بطلا إسبانيا قوميا وكاثوليكيا، وأطلق اسمه على مرحلة من تاريخ الأندلس، أدار حول أحداثها مؤلفه «إسبانيا فى عصر السيد»، ومع ذلك أهمل تماما فى كتابه عن «السيد القنبيطور»، وزهد بالنصوص، ما كان منها تاريخيا ثابتا، أو أسطورة مخترعة، وصية السَّيد عند موته، لأمها والرجل بين الحياة والموت، فى اللحظة التى يتوب فيها الفاجر، ويؤمن الزنديق، لاتم عن أى نبض مسيحى، يقول :

« أنا لذريق بن بيبار المسمىَّ بالسَّيد الشجاع القنبيطور، المنتصر على الدول الإسلامية، وروحى تسلك طريقها إلى الله Dios لكى تستقر فى ملكوته، وبدنى ومن التراب خُلق، إلى التراب يعود، أودّ بعد موتى أن تحنطونى وأن تدهنونى بالطيب، من العطور التى أرسلها إلى سّلطان فارس، ومحمولا على فرسى « بَبْيكا »، ومن خلق رايتى وأعلامى، أظهرونى للملك أبو بكر[١]، ولكل المدافعين، وآمر بأن يدفن فرسى « بَبْيكا »، وألا تترك الكلاب تنهشه، لطالما ضنَّ ببدنه عن نهش الكلاب. وأود أن يحضر مشهد دفنى النبلاء، وأولئك الذين قاسمونى مائدتى، وأكلوا خبزى، وكبار الفرسان »[٢]. وصية لا تتبين أن صاحبها مسيحى ،إذا لم تكن تعرف ذلك مسبقاً. وأى مسيحى ؟ كاثوليكى من فجر العصر الوسيط!

لكن ذلك لا يحول دون القول، إن السَّيد فى أواخر حياته، قريباً من موته، ضعف إنسانياً، ووقع فى قضية دون خرونيمو، راهب فرنسى، ينتمى لطائفة Cluuy، وهى جماعة دينية فرنسية تسرّبت إلى قشتالة عام ١٠٣٣، وتميَّزت بالتعصب الدينى الشديد، ولعبت دوراً فى نقل الروح الصليبى إلى الأندلس، وكانت وراء الكثير من مآسى اضطهاد المسلمين، وقد عينَّه السِّيد مطراناً لبلنسية، بضغط من كبار رجال الطائفة فى طليطلة، فانتزع منه قراراً بتحويل مسجد بلنسية الجامع إلى كنيسة، ومساجد أخرى، رغم تعهّد السِّيد للمسلمين من قبل بألا يمس معابدهم أو شعائرهم الدينية، واستهداه عددا من التحف والجواهر التى استولى عليها مما كان فى أملاك القادر بن ذى النون

---

(١) يشير إلى أبى بكر سير بن يوسف بن تاشفين، قائد جيش المرابطين فى الأندلس.

(٢) لم يتيسر لى النص فى مصادره الأسبانية، فعربته عن ترجمته الفرنسية الواردة فى كتاب (تاريخ إسبانيا المسيحية) لمؤلفه Jean Descola.

وغيره من أثرياء المسلمين، وكان من بينها سجادتان شرقيتان، من روائع السجّاد الشرقى ،كانتا من قبل فى قصر آل ذى النون فى طليطلة، أيام أن كانوا ملوكاً عليها.

● ● ●

معلوماتنا عن الحياة الخاصة للسِّيد قليلة للغاية، أمر متوقع من محارب مغامر لايكاد يستقر فى مكان، غير أن أيامه فى بلنسية كانت أكثر هدوءا من غيرها، لتقدم سنه، وللأمراض التى تعاورته، والجراح التى تركت آثارها فلم تبرأ تماماً، وللهزائم التى بدأت تلوح فى أفق حياته، وإحساسه بأن بساط المجد بدأ ينكمش تحت قدميه، ولا كتئاب داخلى أحس معه أن أيامه على وشك المغيب، فأخلد إلى الراحة، وبدأ يأخذ بحظه من الحياة الاجتماعية، إنساناً غير عادي، يتصرف كملك متوج، يجلس للقاء الوفود، وتنشد بين يديه قصائد المديح.

حينئذ بدأ يجمع إلى جواره رفاقه فى رحلة الحياة العنيفة والمريرة فاستقدم أسرته، زوجه وبنتيه، من قشتالة، وابن أخيه **ألبار هانييث ومونيو جوستيوس** عديله، فقد كان متزوجاً من أخت دونيا خمينا، وآخرون من كبار القوّاد، ترتفع بهم الوثائق إلى ثمانية وعشرين، وتقف بهم الملحمة عند أربعة وعشرين، وهى دقة توحى بأن الملحمة أقدم بكثير مما يذهب إليه الدارسون(١)، وانها كُتبت إن لم تكن فى أيام السِّيد الأخيرة فبعدها مباشرة دون تأخير طويل. وكان بلاط السِّيد أندلسيًّا حقاً، فيه جند مسلمون ومسيحيون، من كل أنحاء شبه الجزيرة، وفيه قادة كبار من ممالكها المختلفة، من قشتالة وليون، وأرجون، ولقد صمتت الملحمة تماماً عن أصدقائه من المسلمين فلم تذكر غير واحد هو

---

(١) انظر الفصل الخاص بقصة للملحمة ص ٦٢ وما بعدها.

ابن غلبون ، صديق السيد الحميم وحاكم مدينة مولينا Molina. وأغفلت الدراسات الحديثة، وأبحاث **مننديث بيدال** بوجه خاص، الحديث عمن كانوا فى بلاطه من المسلمين. أما الملحمة فلأن شاعرها مسيحى كان ينشدها مسيحيين، أو مسلمين مُستَغلَّين فى أرض مسيحية، وربما كانت تنشد فى الجانب الإسلامى على نحو آخر، وفى صورة أخرى لم تُسجل. وأما المحدثون فللإيحاء بأن **السيد** كان بطلا قوميًا مسيحيًا حقًا، وليس ذلك بصحيح، فنحن نعرف من سير الأحداث، ومن إشارات، «مدونة تاريخ إسبانيا العام»، أن بعض المقربين إلى السيد وممن حوله من كبار مستشاريه كانوا مسلمين. كان **بن عبدوس** مسلما، ويتمتع باحترام مسلمى بلنسية والسِّيد على السواء، وكان مشرفا على الضرائب، وعندما تفاوض السِّيد على دخول المدينة، كان من جملة شروطه أن يبقى ابن عبدوس فى منصبه. وكان هناك **ابن الفرج** ممثله فى بلنسية قبل أن يدخلها فاتحا، وحين كان يقبض الجزية من أميرها **القادر** بن ذى النون. وكان السِّيد على صلة طيبة بالقاضى **أبى الوليد الوقشى**، واختاره قاضيا لمدينة بلنسية، يستشيره ويسمع منه، فى كل ما يتصل بأمور المسلمين.

لم يكن **السِّيد** صاحب مشاعر رقيقة، ولم ينبض قلبه بالحب أبدا، وكان زواجه ثمرة مصلحة سياسية، وفُرض عليه، ولم يكن وليد عاطفة إنسانية، ودَفْع داخلى، فلا عجب أن بقيت زوجه لسنوات طويلة بعيدة عنه فى قشتالة، وكان هو مشغولا عنها بمغامراته الحربية، ولم يعش إلى جانبها إلافترات قصيرة، أطولها أيامه الأخيرة فى بلنسية، مريضاً منهكا، ولم تتجاوز أربعة أعوام، ولم يرزق منها بغير ولد واحد، مات قتيلا فى إحدى المعارك، وفتاتين. كذلك لم تكن **دونيا خيمينا** زوجه، وهى ترجو الملك أن يتفضل فيختار لها لذريق زوجا تعبر عن

إعجاب رومانسى، وإنما لجأت إليه لتدفع حربا أهلية توشك أن تمزق قومها، لم تكن تحب لذريق، ولربما فكرت أنه سيعرف يوماً الدافع الذى حملها على الزواج منه، والإخلاص الذى تكنه له، فتقوى العلاقة بينهما، وتتمزق أستار الوحشة.

وليست لدينا معلومات دقيقة عن الثروات التى خلفها **السِّيد** أو عن الجواهر الثمينة التى حازها من **القادر**، أو ابتزها من سكان بلنسية، طواعية أو بالتعذيب والإحراق، وأثمن ما يملك منها أسورة نادرة، جوهرة ذات صناعة بديعة فريدة، كانت تخص **زبيدة** زوج **هارون الرشيد**، هكذا يقال، وظلت عبر ثمانية قرون، من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر، حديث الناس فى الشرق والغرب، وعلى جانبى البحر الأبيض، وانتقلت من بغداد العباسيين إلى بلاط الأمويين فى قرطبة، ومن قرطبة إلى بنى ذى النون فى طليطلة، واستقرت أخيراً فى يد القادر، فحملها إلى بلنسية، مع بقية ثروته وجواهره، وكان بنو ذى النون من أغنى أمراء الأندلس. فلمَّا تقاسم السِّيد وجنوده الغنائم، عندما دخلوا بلنسية منتصرين، جعلوا ثروة القادر بما فيها من تحف وحلىّ من نصيب السِّيد، وهكذا انتهى المطاف بأسورة سلطانة بغداد لتكون الحلية المفضلة لدونيا خيمنا زوج السِّيد، فى بلنسية أولا، ثم فى قشتالة من بعد، حين فارقت المدينة مكرهة أمام حصار المرابطين.

كانت هذه الجواهر كثيرة، وتتبع التاريخ سيرها إلى ما بعد موت السِّيد بأربعة قرون، ففى عام ١٤٥٣م انتهز **خوان الثانى** ملك قشتالة فرصة اغتيال القائم على أموال مملكته، فاتهم قائده **ألبار دى لونا**، وكان فى البدء من أقرب الناس إليه، وبلغ قدراً كبيراً من النفوذ والسلطة، وصار أقوى وأغنى رجل فى الأندلس دون منازع، فى الأندلس الإسلامى والمسيحى على السواء،

فأثارت قوته غيرة الملك، فانتهز هذه المناسبة، وتخلص منه بالإعدام. وكما كان السيِّد نهما إلى المال، كذلك كان خوان الثانى، فصادر أموال البار دى لوا وتتبع كل ثرواته الخفية، وخزائنه السرّية، وفى أشدها خفاء، وأبعدها عن الأعين، ظهرت جواهر ملوك قشتالة القدامى، ومن بينها حزام نسائى من الذهب الخالص، المزخرف بالماس، والأحجار الثمينة، من أملاك السيد، ويعتقد بعض المؤرخين أيضاً أنه بعض جواهر **زبيدة** زوج **الرشيد**. وهذا الحزام سيظهر فيما بعد، تتمنطق به **إيزابيل**، بنت خوان الثانى، والتى ستدخل التاريخ بوصفها ملكة على يدها، مع زوجها **فرناندو**، وضعت الكاثوليكية حدا لإسلام الأندلس، حين دخلا معًا غرناطة فاتحين ومنتصرين فى ٢ من يناير ١٤٩٢. وكانت إيزابيل مغرمة بالجواهر والحلى، غير أن أحدا لم يعد يسمع عنه بعد ذلك شيئاً، ويظن أن الملكة باعته لتواجه بثمنه نفقات الحرب التى اضطلعت بها ضد المسلمين، وذهب إلى حيث لم يعد يهتم به التاريخ أو يتحدث عنه.

بعض ملامح التأثير العربى نلتقى بها فى حياة السِّيد، كان يفرش أرض داره بالسجَّاد، أو الحصير، وهى عادة عربية، انتقلت، إلى أوربا خلال الحروب الصليبية وعن طريق الأندلس، فقد كانوا فى أوربا يعلقون السجاد على الجدران فحسب، أما السيِّد فيجمع بينهما، يفرش الأرض، ويغطى الجدران، وخلال حكمه لبلنسية تعوّد أن يلتقى بأعيان المدينة، جالساً على منصة، فُرشت أرضها بالسجَّاد والحصير، وهو فى قصره يستمع إلى الشعراء فى اللغة العربية الفصحى، أو فى عامية أهل الأندلس، أو فى الرومانثية، ولا أظنه كان يعرف من اللاتينية غير القليل، فقد أصبحت على أيامه لغة ميتة، لايفهمها إلا رجال

الدين، وغير المتخصصين منهم لا يعرفون إلا ما يتصل بالصلوات والمواعظ، يلقونها على جمهور يهز رأسه خاشعا، ويتابع صلواتهم مؤمناً، ولكن دون أن يعى جيداً ما يقولون.

لم يلتفت **المؤرخون المسلمون**، وهم الذين أوردوا لنا نتفاً من أخباره يمكن أن تعد تاريخاً، كابن بسام، وابن علقمة، إلى غير الجانب الحربى والعسكرى من حياة **السِّيد**، غير جملة جاءت عرضاً فى حديث **ابن بسام**، ولكنها ذات دلالة هامة، فهو يروى أن السِّيد كان يجلس فيستمع إلى قصص العرب، ويعجب من بينها بسيرة **المهلَّب بن أبى صفرة** ويطرب لسماعها ويطرب، وهو أمر طبيعى، فقد كان فى حياة المهلب، ومنهجه فى الحرب، وتخطيطه للقتال ما يتفق وأفكار السِّيد. وأتصور أن إقباله على الثقافة العربية أو الإسلامية، ضعها تحت أىّ اسم شئت، أوضح مما يشير إليه المؤرخون، فقد كانت الثقافة العربية على أيامه أرقى بكثير جدًّا من المسيحية، وقد تعوّد معاصره **بدور الأول** ملك أرجون أن يوقع أوامره بالعربية زهواً وافتخاراً. ولقد أمضى السِّيد سبعة عشر عاماً كاملة ومتواصلة فى خدمة أمير مسلم، وجانب كبير من جنده، يتجاوز النصف أحياناً، كانوا مسلمين، وكانت سرقسطة حيث عاش مركزاً حضاريًّا عربياً، وبلاط **بنى هود** أصدقائه عامر بالشعراء، والأدباء، قادمين أو وافدين، وأمراؤه يقرضون الشعر، ولم تكن بلنسية أقل إشعاعاً من سرقسطة، إن لم تزد، **والوقشى** قاضيه على المدينة، ومستشاره لشئون المسلمين، كان شاعراً وفيلسوفاً ولغوياً، إلى جانب اهتمامات فكرية أخرى يعدها له أصحاب المعاجم والترجمات، وكان **القادر** حليفه حيناً، ومحميّه حيناً آخر، مغرماً بالكتب واقتنائها، ويملك مكتبة من كبريات ما فى الأندلس من مكتبات، ورثها من آبائه، وأضاف إليها ما أمكنه، وكان من بين ما أضاف

إليها شراء مكتبة المؤرخ الأندلسى الكبير **ابن حيان**، وجاءت فى ثلاثة وأربعين صندوقاً. فهل يحق لنا أن نتصور أن حياة الرجل كانت فى الجانب الأرجح منها عربية التقاليد إسلامية السمات؟

غير أننا يجب ألا ننسى أن اهتمامات **السِّيد** بالشعراء جاءت فى أواخر حياته حاكماً على بلنسية، ويخيل إلىّ أنه كان يضطلع بها استجابة لمراسم منصبه، حين جلس على عرش ملك مسلم، كان من بين مهامه الأولى أن يغذى هواية الناس للفنون والآداب وشتى مظاهر الجمال، ويعطى المثل من حياته، يلقى الشعراء، ويغدق عليهم العطايا، ويقتنى الكتب، وينمىّ صناعة الكتاب. غير أن المؤرخ الإسبانى **مَسْديو** يذهب إلى أن السِّيد مجرد مغاور almogaver جاهل أمى، مهمته أن يغير وأن ينهب، دون أن يفكر فى الثقافة والفنون والإقبال عليها. وهو أمر لا يمكن قبوله على إطلاقه، والذى أدى إليه أن المؤرخ الإسبانى كان يجهل العربية، فلم يستطع أن يستفيد بما فيها من مصادر تلقى الضوء الكثير على حياة السِّيد، غير أننا من جانب آخر نرفض الفكرة المقابلة والمتطرفة، والتى تجعل من السِّيد ليس مثقفاً فحسب، بل وعالماً متمكناً من القانون القوطى. والرأى الذى نرتضيه هو مفهوم رواية **ابن بسام**، فقد أشار إلى أن الرجل كان يقبل على الثقافة العربية ما اتصل منها بسير الأبطال وقصصهم، إذ كان يرى نفسه فى حياتهم، وخططه صورة من نشاطهم، وانتصاره شبيها بانتصاراتهم، دون أن يذهب إلى أبعد من هذا، فيجعل منه «ابن عباد» آخر.

أما الملحمة فتقدم لنا السِّيد فى صورة مغايرة، تتفق مع التاريخ فى أنه مخادع وماكر، ويقاتل من أجل لقمة الخبز، ويؤمن بالعرافة، وفيما عدا ذلك

تقدم لنا شخصاً مختلفاً تماماً. فهو مسيحى طيب عند كل موقف صعب، ويتوجه بالدعاء الحار للخالق بعد كل نصر، يعفو وينسب فعله للحماية الإلهية، بألم لنفيه من وطنه، فيظهر له جبريل فى الأحلام، يواسيه ويبشره بمستقبل سعيد. ويخدم ملكه بإخلاص كامل، وظلمه ألفونسو السادس عندما نفاه، وكان هذا رأى سكان برغش كبرى مدن قشتالة على الأقل، وقد صاحوا به عندما مرّ بمدينتهم. «ياالله !... ألا تعطى هذا التابع الطيبّ سيداً صالحاً» غير أن السيد إبقاء على مكانة الملك، لا يتهم **ألفونسو**، ولا يخوض فى سيرته، وإنما ينسب ما وقع له إلى الحاشية، إنها وحدها السبب فيما يعرض له من مصاعب. ودائماً يحاول أن يخفف من غضب الملك عليه، وعندما علم أن ألفونسو تحرّك لكى ينتزع منه فتوحاته تخلى عنها، لأنه لا يرغب فى القتال ضد سيده، وإذا استحوذ على غنائم فى القتال، بادر فأرسل إلى الملك بهدية كبيرة منها. وعندما التقى الملك معه استقبله ضارعاً، وسجد أمامه، وأخذ العشب بأسنانه، وفاضت دموعه فرحاً.

وهو بين جنوده، وبين أعدائه، مثال للطيبة والكرم، فإذا استولى على قلعة وأراد أن يتركها جاءه سكانها المسلمون باكين، يرجونه أن يبقى، أو يرافقونه حيث يذهب. وعندما خلف وراءه مسقط رأسه منفيًّا، تاركاً داره وأسرته، بكى ألماً. **والسِّيد** فى الملحمة أب وديع وحنون، يسأل دائماً عن زوجه، وعن بنتيه **دونيا ألبير أو أودونيا سول**، وحول زواجهما يدور موضوع الملحمة الرئيسى. وعندما نقلوا إليه فى بلنسية رغبة الملك فى أن يزوّج بنيته من أميرى «كاريون» أحسّ بالثقة فى نفسه، وصاح: إننى مجرد منفى، استولوا على أملاكى، وما معى الآن ربحته بالجهد والتعب، شكراً يا إلهى، لقد رضى عنى الملك أخيراً. ومع أن الأميرين من طبقة النبلاء، ويتمتعان بنفوذ كبيرة فى بلاط

الملك، كره السيد زواجهما من بنتيه، لأنهما لا يستطيعان أن يحققا هما السعادة، غير أنه لا يعارض، خضوعاً لرغبة الملك، فليس له إزاء رغبة عاهله كلمة.

لقد طلب أميرا «كاريون» يدى بنتى السِّيد، ألبيرا وسول، طمعا فى ثروتهما، فقد كان أبوهما بعد ما حاز من غنائم يعد من كبار الأغنياء، وكانا تافهين ومزهوين، وقاسيين وجبانين، وكان جبنهما بإزاء أسد انطلق من مربضه فى حديقة قصر السِّيد فى بلنسية، موضع التهكم والسخرية، ولما ضاقا ذرعا بما يوجه إليهما، أصرا أن ينتقما من السِّيد فى شخص بنتيه، فرغبا إليه فى العودة إلى «كاريون» مع زوجتيهما، والأموال الهائلة التى أصاباها، وصحبهما قريب للسِّيد يدعى **فِلِث مُنيوث**. وفى «مولينا» استقبلهما **ابن غلبون**، مسلم حليف وصديق للسيد، فى حفاوة بالغة، ولما عرفا ما يملك من ثروة، بيَّتا النية على قتله، والاستيلاء على خزائنه، لكن مسلما يعرف الرومانثية فهم ما يتبادلان من قول، وأعلم سيده، فاتهمهما ابن غلبون بالخيانة، ثم تركهما يذهبان، دون أن يعاقبهما بما يستحقان إكراماً للسيد. وعندما وصلوا إلى غابات «كوربيس»، نفّذ الأميران خطة شائنة، خطّطا لها فى بلنسية قبل الرحيل. فقد أمرا كل تابعيهم بالمسير فجراً، وبقيا وحدهما مع زوجتيهما، حينئذ بدآ ينتقمان منهما، فجرداهما من ملابسهما، وضرباهما بسيور المهماز حتى سال منهما الدم، وتركاهما تعيستين لا تستطيعان الكلام، نهباً للنسور والحيوانات المفترسة. غير أن فِلِث منيوث لم يكن مطمئناً إلى مصير بنتى عمه، فكمن وراء غيابة من الجبل، ولما رأى الأميرين قادمين وحدهما تركهما يمران، وعاد إلى الغابة فوجد بنتى عمه نصف ميتتين، فنادهما باسميهما، ففتحتا عيونهما أخيراً، واستردتا وعيهما شيئاً فشيئاً، فسترهما بعباءته، وحملهما على حصانه، ونقلهما إلى مكان مأمون.

وأخبر السيِّد بما حدث فصمت طويلا، وتأمل مستغرقاً، ورفع يده، ثم أمسك بلحيته وشكر المسيح سيِّد العالم وأقسم بحق لحيته التى لم يمسها مخلوق : « إن أميرى كاريون لن ينعما بما فعلا طويلا، وسأزوج بنتى زواجا كريما » ولقد تحقق له أمله، فزوّج إحداهما من أمير نبرة، والأخرى من أمير أرجون.

وضاع **السيِّد** التاريخى تماما فى ضباب الأسطورة، وأصبح قديسا وبدأ الجنود عند الحرب يتبركون بقطع يحملونها من تابوته، تحميهم من الهزيمة، وتجلب لهم النصر، وتقدم **فيليب الثانى** (١٥٢٧ - ١٥٩٨) أعظم ملوك أسبانيا، وأشدهم تعصباً، بطلب إلى **البابا** فى الفاتيكان أن يضيف السيِّد إلى قائمة القديسيين؛ ورفض البابا. لقد أراق صاحب هذا السيف دماء غزيرة، ولم يكن منظر أكاليل القديسيين يقع منه موقع الرضا، ولم يكن صوفيا ولا زاهداً، بل « وكان مسلما بقدر ما هو مسيحى، ولا يزال حتى اليوم، داخل قبره مسيحيا يحمل ملابس عربية ».

ولم يعجب قرار البابا **فيليب الثانى**، فسحب سفيره من روما احتجاجاً **والحق أن السيد لو عاش على أيام فيليب الثانى، لقضت عليه محاكم التفتيش بالموت حرقا، بتهمة الإلحاد أو تدنيس المقدسات.**

سيظل السيد سجين الخيال الشعبى، فى منتصف الطريق بين الحقيقة والأسطورة، وسيبقى هذا الجندى الأجير الذى صنع لنفسه بسيفه مُلْكًا، المسيحى الذى يقاتل لصالح المسلمين، شاهد صدق على طبيعة الأندلس كما ألمحنا إليها فى المقدمة والتمهيد، ودليلا على ما كان بين المسلمين والمسيحين فى شبة الجزيرة من تسامح وتآخ، حين تنأى عنهم أطماع الحاكمين، وتخف قبضة رجال الدين.

شخصيات الملحمة

فى البدء، وقد اختلط التاريخ بالأسطورة فى الملحمة، كان يُظن أن الوقائع كلها، بما فيها شخصية السِّيد، عمل اخترعه خيال شاعر مجهول، وأنها لم تجر أحداثها على النحو الذى رُوِيت به أبداً، ومع النهضة الحديثة، وتقدم وسائل الدرس، ونشر الكثير من المصادر الأندلسية، والعربية منها بوجه خاص، بدأت شخصية السِّيد تتضح، على نحو مخالف لما عليه فى الملحمة، ولكن بطريقة لا تدع مجالا للشك فى أن الرجل وجد وعاش فعلا، ثم تجاوزه الأمر إلى الشخصيات التى وردت فى الملحمة، وباستثناء عدد قليل منها، ودوره ثانوى، فإن الكثرة الغالبة شخصيات تاريخية، وجدت حقًّا، وشاركت فى أحداث عصرها سلباً أو إيجابا. ولسوف يساعد على تفهم أحداث الملحمة، ماهو حقيق منها وما هو أسطورى، أن نتتبع حياة الشخصيات التى تدور حولها الأحداث، فى بساطة موجزة، بقدر ما تساعدنا عليه المصادر، دون أن نتجاوز كتب التاريخ إلى الملحمة نفسها، لأن تتبع نشاطهم فيها يمكن للقارئ أن يلتقطه من النص المترجم مباشرة.

● **ألفونسو السادس** Alfonso VI (١٠٦٥-١١٠٩) ملك قشتالة، وهو أوضح شخصيات الملحمة، فقد تحدَّاه السِّيد على مرأى من مجمع الفرسان والنبلاء، حين اضطره أن يردِّد القسم الخاص ببراءته من دم أخيه **شانجه الثانى**، وقد اغتيل بتدبير من أخته **أراكه**، ومن أخيه **ألفونسو** فيما يظن، قبل أن يرضى به القشتاليون ملكا عليهم، وأسرّها الملك فى نفسه فلم يلبث أن نفى السِّيد من مملكته. ويعد ألفونسو من أعظم ملوك قشتالة، فقد جمع تحت

تاجه ممالك جليقية وأشتورياش وليون وقشتالة، وكان يرمى إلى توحيد الأندلس المسيحى كله تحت لوائه.

وتجاوز نفوذه الأندلس المسيحى إلى الأندلس الإسلامى، فدفع له الجزية عدد من ملوك الطوائف الصغار، وارتبط تاريخه فيتى بالصراع الإسلامى المسيحى، وبلغ ذروته فى نهاية القرن الحادى عشر، وتعرفه المدوّنات العربية فى جوانب متعددة من حياته. فحين هزُم فى موقعة جلبخيرا عام ١٠٧٢م، أمام جيوش أخيه شانجه الثانى، وأُسر فى المعركة وسُجن، ثم أفرج عنه فيما بعد، لجأ إلى طليطلة الإسلامية، ونزل ضيفاً على **المأمون بن ذى النون**، فأحسن استقباله، وأعطاه سكناً فى القصر الملكى يشرف على حصون المدينة. وهو آمن فى حدائق القصر الواسعة، خلىّ من متاعب الحياة، كان همه أن يدرس جغرافية المدينة ومسالكها، وأفضل الطرق للاستيلاء عليها، ولم يطل به التفكير، فقد ترامى إلى سمعه ذات يوم، وهو ينعم تحت ظل شجرة وارفة فى الحديقة، حديث يدور بين بعض القواد المسلمين عن المدينة ومنعتها، وأنها لا تهزم إلا أمام الجوع لأن ضرب الحصار حولها سهل، وليس لها من سبيل إلى العيش غير ما يحمل إليها مما حولها. ووعى **ألفونسو** الدرس جيداً، وبعد تسعة أشهر اغتيل أخوه **شانجه** الثانى، فى ٧ من أكتوبر ١٠٧٢، وهو يحاصر مدينة سمورة، فأرسلت إليه أخته **أراكة** تستدعيه لكى يصبح من جديد ملكا على قشتالة، ويضم إليها ليون، وعدداً آخر من الممالك، وما لبث، حين واتته الفرصة بعد ثلاثة عشر عاماً، أن طبق نظرية القواد المسلمين، فحاصر طليطلة فى قوة، وخرَّب ما حولها بقسوة، وسقطت فى يده من غير قتال.

وأدى سقوط طليطلة إلى عبور المرابطين مضيق جبل طارق لنجدة المسلمين. والتقوا بالجيوش المسيحية، وقد أخذت شكل حملة صليبية، شارك

فيها جنود مسيحيون من كل العالم الكاثوليكى إذ ذاك، بقيادة **ألفونسو السادس**، فى مكان يعرف بالزلاقة، وبه شهرت المعركة، ودارت الهزيمة على الجيش المسيحى، وكان النصر للمرابطين، على نحو ما ألمحنا إليه من قبل، ونتيجة لمعركة الزلاقة، استقر المرابطون فى الأندلس، وخلعوا ملوك الطوائف واحداً وراء آخر، وقُتل فى صدام معهم عند قرطبة حاكمها **المأمون بن المعتمد بن عباد**، ثم سيق أبوه ومن تبقى من أسرته أسارى إلى مراكش، فما كان من زوج المأمون المقهورة من مصرع زوجها وإخوته وأسر أبيه، إلا أن لجأت إلى **ألفونسو السادس** ملك قشتالة، فكانت له واحدة من زوجات خمس إلى جانب عدد من الخليلات والمحظيات على عادة ملوك شبه الجزيرة مسلمين ومسيحيين، وكان له منها الابن الوحيد، وقتل فى ميعة صباه، يقود جيش قشتالة فى معركة ضد المرابطين تعرف بموقعة أقليش، وجرت فى ٣٠ من مايو عام ١١٠٨، وكانت الدائرة فيها على المسيحيين.

● **ألبار هانييث** Alvar Hanez ، ويكتب الحرف الأول من هانيث F فى المصادر القشتالية القديمة و H فى اللغة الإسبانية الحديثة، وهى تطور للغة القشتالية، والنطق واحد فى كلتيهما. وتسميه المصادر العربية **ألبار هانس** وهو أكثر شخصيات الملحمة ذكراً عند المؤرخين العرب.

ويظهر لأول مرة فى وثائق أعوام ١٠٩٧-١١٠٧ القشتالية كحاكم لمدينة Zorita ، وكان واحداً من كبار الفرسان فى بلاط **ألفونسو السادس**، والتقى مع المرابطين فى أكثر من معركة، وخلال حكم **أراكة** ابنة ألفونسو السادس عين حاكما على طليطلة من ١١٠٩ إلى ١١١٤، وفى العام الأخير اغتاله أهل شقوبية، وهو يدافع عن حق الملكة، ضد أنصار الملك الأرجونى **ألفونسو المحارب**. وتدعوه الملحمة ابن أخ السيد، وهى قرابة تؤكدها الوثائق

التاريخية. وتذكر أيضاً أنه كان ساعد السيد الأيمن، وإلى جانبه دائماً. والحق أن حياتيهما جرت متباعدة، ومن المؤكد أنه صحب **السيد** فى نفيه، لأنه اسمه لا يظهر فى وثائق القصر الملكى فى قشتالة خلال أيام النفى، غير أنه يعود إلى الظهور مرة أخرى فى أعوام ١٠٨٥-١٠٨٧، إذ عهد إليه ألفونسو بأن يكون مع القوات التى تحت أمره فى خدمة **القادر بن ذى النون** ملك بلنسية، بعد أن أزاحه عن عرش طليطلة، ثم يظهر فى الوثائق الملكية بعد ذلك، فى أعوام ١٠٩٠- ١٠٩٥، حين كان السيد مشغولا بالاستيلاء على بلنسية، ولقد أمضى **ألبار هانيث** أياما مع عمه فيها، لكننا نجده فى العام الذى توفى فيه السيد، أى عام ١٠٩٩، منفصلا عنه، يقاتل المرابطين عند كونكة، ثم يخرج من المعركة مهزوماً.

أما فى المصادر العربية فنجده لأول مرة سفيراً لألفونسو، يحمل رسالة إلى **المعتمد بن عباد**، تنضح كبرياء وصلفا، وينعت فيها ملك قشتالة نفسه بأنه «سيد الشعبين وأمام الملتين»، فأجاب المعتمد عليها برسالة أشد كبرياء واعتزازاً وعنفاً. لكن أمير إشبيلية، إزاء تردد المرابطين فى العبور إلى الأندلس لدعم المسلمين، لم يجد بداً من دفع الجزية للملك ألفونسو. وكان مع **ألبار هانيث** يهودى بارع فى شئون النقد يدعى **ابن شاليب**، مهمته أن ينقد المال الذى يدفعه المعتمد، فقد كان تزييف النقد، ودفعه فى المغارم والجزية عملا شائعاً، غير أن اليهودى بالغ فى أداء مهمته، فعدّ ذلك وزراء المعتمد إهانة لهم، ورفضوا أن يسمحوا له بالاستمرار فى عمله، وحاول **ألبار هانيث** أن يسوى الخلاف، فاقترح أن يقدم المعتمد سفنا حربية بدل المال المطلوب، لأنه مكلف بألاّ يقبض أية دراهم أو دنانير دون تفحص ونقد وتحقيق.

وقد غضب **المعتمد** لهذه المعاملة من جانب السفير وخبيره النقدى غضباً

شديداً، وتبالغ بعض الروايات العربية فتقول إنه بطش بالسفير، أو فقأ عينيه، وقتل رفاقه وهم ثلاثمائة، ولم ينج منهم سوى ثلاثة لاذوا بالفرار، وضرب اليهودى حتى غُشى عليه ثم صُلب. وهى رواية غير دقيقة لأننا سوف نلتقى بعد الحادثة بالسفير **ألبار هانييث**، ولزمن طويل، فى أكثر من مكان. أما الرواية الوثيقة فتقول إن المعتمد أنب السفير، وكان يقيم فى خيام له بظاهر إشبيلية، ولم يعتد أحد على حياته جريا على سنن القانون الدولى، ولكن بعض جنود الصقالبة، وحاشية المعتمد، انسلوا إلى خيمة اليهودى، وربما بإيعاز من المعتمد نفسه، فقتلوه ومن كانوا معه. وعاد السفير إلى طليطلة يتوعد المعتمد بنقمة مولاه.

ونجده بعد ذلك فى رفقة **القادر** ملك بلنسية، يثبّت عرشه ويدفع عنه السكان الثائرين عليه، وحكام القلاع المتربصين به، ثم يرحل من هناك لينضم إلى جيوش **ألفونسو** الذاهبة لمقاتلة المرابطين فى موقعة الزلاقة الشهيرة، وأصبح **ألبار هانييث** قائد الجيوش المسيحية، وتتألف من جند قشتاليين، ومن أرجون، ومن متطوعة كاثوليك جاءوا من وراء الأندلس ،وتقدر بعض الروايات العربية الجيش المسيحى بأنه كان فى ثمانين ألفا، وقد مزقه المسلمون تماما ولم ينج منه غير خمسمائة فارس، فرّوا إلى طليطلة مع الملك ألفونسو، ومعظم الفارين كانوا مثخنين بالجراح، فلم يصل حيا منهم غير مائة وكان **ألبار هانييث** من الناجين لأننا سوف نلتقى به حيا بعد عام ١٠٨٦، تاريخ المعركة؛ وسيجىء إلى إشبيلية مرة أخرى، ليقاتل فى هذه المرة مع **المعتمد بن عباد** ضد المرابطين؛ وقد انتصر المرابطون، وارتد القشتاليون، وأثخن ألبار هانييث فى هذه المرة جراحاً.

● **بير، أو بدرو، أنسوريث** Per (Pedro) Ansûrez من أكثر شخصيات

الملحمة ذكرا فى النصوص المسيحية القديمة، فقد كان واحدا من النبلاء الكبار، وكان الشخصية الأولى فى بلاط الملك **ألفونسو**، وعندما وقعت الحرب بين الأخوين ألفونسو ملك ليون، **وشانجه** ملك قشتالة، فى «جلبخيرا» قريبا من «كاريون»، قاتل الأخوان **جنثالو** و **بدروأنسوريث** إلى جانب الأول، وقاتل **السيِّد** إلى جانب الثانى، وانتهت الحرب بهزيمة ألفونسو ملك ليون، فلجأ إلى كنيسة المدينة، وتبعه شانجه ومعه السيّد إلى هناك وأخذه أسيرا، ثم أطلق سراحه فيما بعد، لكى يذهب لاجئا سياسياً إلى بلاط بنى ذى النون فى طليطلة، وصحبه فى منفاه الأخوان بدرو وجنثا لو. وكان بدرو من حين لآخر يترك طليطلة سرا، ويذهب إلى سمورة، ليلتقى بالملكة **أرّاكه** أخت الملكين، فيخطط معها لعودة ألفونسو إلى عرشه فى مدينة ليون وكان **بدرو** لفترة من حياته العشيق الرسمى للملكة **أراكه**، رغم أنها كانت متزوجة.

وتطلق الملحمة على **جنثالو أنسوريث**، اسما آخر هو **جنثالبو Gonzalvo**أو **الكونت جنثالبو**، وهو والد أميرى كاريون **دييجو وفرناندو**، اللذين سيتزوجان بنتى السِّيد، الزواج الأول. وكانت الأسرة تتمتع بشهرة واسعة لأنها تنتمى إلى **جومث دياث**، وكان صهر كونت قشتالة الشهير **فرنان جنثالث**، وقائده وأصبح يطلق عليهم منذ القرن العاشر اسم **بنى جومث Vanigomez** ، وفى الإسبانية الحديثة **Bani gomez**، وبه شهروا فى المصادر العربية، وأصبح **بدرو** منذ عام ١٠٩٥ يحكم بلد الوليد، ومنطقة واسعة تمتد بين نهرى إسلا وبِسْورجا، وتشمل مدن كاريون، وسمورة وسلدانيا، ولِيْبَنا. وسفر بدرو لألفونسو، فكان سفيره إلى **عبد الله بن بلقين** ملك غرناطة لكى يقبض منه الجزية، فرفض ملك غرناطة أن يدفع له شيئاً، ولكى

يعاقبه بدرو على رفضه، خرج مع رجاله وجيش **المعتمد بن عباد** ملك إشبيلية، وخربوا أراضى مملكة غرناطة.

وأميرا «كاريون» فى الملحمة هما ابنا **الكونت جنثالو** وتم زواجهما من بنتى **السيد** بإشارة من الملك **ألفونسو**، وهما شخصيتان تاريخيتان، ويظهر اسماهما فى الوثائق الملكية لقشتالة فى أعوام ١٠٩٠-١١٠٩، مع لقب ابنى الكونت، ومن حاشية الملك، غير أن الوثائق التاريخية لا تشير قط إلى قصة زواجهما، وزواج بنتى السِّيد من أمير نبرّة وكونت برشلونة ثابت تاريخيا، لكن هذا لا يعنى أن الزواج الأول لم يحدث، وكل ما هنالك أنه كان مخالفاً لقوانين الكنيسة، وكانت رقابتها على ما يكتب عنيفة فلم تسمح بتسجيله. وكان من الشائع فى العصور الوسطى، داخل العالم الكاثوليكى، أن يتم الزواج الثانى، دون حاجة إلى طلاق ترفض الكنيسة فى إصرار وعناد أن تقره أو توافق عليه، والمتصوَّر هنا أنَّ بنتى السِّيد تزوجنا من أميرى كاريون ثم فشل الزواج، فكان زواجهما الثانى برغم أن الزوجين الأولين أحياء، ولعل طلاقا وقع على سنن المسلمين وتأثرا بهم، ذلك أن الملحمة، فى معظمها، تدور أحداثها حول هذا الزواج وليس حول السِّيد وفتوحاته، فمن الصعب تصوّر أن القصة كلها خيال من صنع الشاعر، فى ملحمة خطوطها الرئيسية أحداث تاريخية، أكدتها الوثائق والمدوّنات. ولعل الزواج تم فى مرحلة كان والد الأميرين صديقا للسِّيد، ففى عام ١٠٧٤ نجد توقيع الكونت **جنثالو** شاهدا على عقد زواج السيد من **دونيا خيمينا**.

بقى أن نشير إلى أن الشاعر الذى صاغ الملحمة قشتالى أصلا، فعواطفه مع الملك **ألفونسو**، وهواه مع **السِّيد**، ومن ثم فهو ينظر بعين العداء إلى نبلاء ليون، وكانوا فى الحزب المناهض للسيد، أما بعد أن زالت العداوة، واتحدت

المملكتان، قشتالة وليون، تحت عرش واحد، فقد أصبح اسم **بدرو أنسوريث** موقرًا، واختفى كعدو للسيد، فيما أدخل على الملحمة من إصلاح، بل إنه مُحِيَ تماماً من الأصل الذى نسخ منه الملحمة **بدرو أباد**، المخطوطة الوحيدة التى وصلتنا شعراً، أما اسم **جنثالو أنسوريث**، وكان مجهولا من الشعراء، فبقى كما هو، ولم يحتج بالتالى إلى إصلاح.

● **الكونت غرسية أوردونييث** Garcia Ordonez، نجده فى الوثائق حاكما لمدينة نجرة منذ عام ١٠٧٧ م، وعلى مدينة جرانيون فى مقاطعة ريوخا منذ عام ١٠٩٤م، ويرد فى الوثائق تحت اسم دون غرسية جرانيون ويُذكر فى المصادر العربية مصحوباً بلقب « صاحب الفم الأعوج ». وبدأ حياته صديقا للسيد، وكان شاهد زواجه من **دونيا خيمينا** عام ١٠٧٤، وبدأت العداوة بينهما، فيما يبدو، منذ التقيا مختلفين فى معركة قريباً من قرطبة، عند حصن قبرة. وكان **السيد** فى جانب **المعتمد**، والكونت **غرسية** فى جانب **المظفر** ملك غرناطة، وانتصر فيها السيد، وأسر الكونت غرسية وسجنه، ثم أطلق سراحه فيما بعد؛ وأصبح يطلق عليه سخرية كونت قبرة. ولعب دورا هاماً فى بلاط **ألفونسو السادس** ضد السيد، وهو دور تشير إليه الملحمة، وغير موثق تاريخيًا؛ إلا أن مثل هذا النشاط من الدسّ لا يدخل فى نطاق التسجيل، ويمكن أن يتصور من الأحداث نفسها، فقد ظل غرسية لا ينسى للسيد أبداً أنه انتصر عليه، وأهانه وسجنه، وكان يتمتع بنفوذ كبير، وموطن ثقة الملك، فعهد إليه بتربية ولى العهد، وكان يقول عنه : « مجد مملكتنا العظمى »، وقد تحدّاه السيد للمرة الثانية، فهاجم مقاطعة ريوخا عام ١٠٩٢، وكانت تحت حكم الكونت غرسية. وشارك الكونت غرسية إلى جانب المسلمين فى الحرب التى وقعت بين **المستعين** صاحب سرقسطة وبين **شانجه رامريث** ملك

ارجون، حين حاول هذا الأخير أن يستولى على مدينة وشقة، ثانية مدن مملكة سرقسطة، فضرب الحصار حولها، ولم يستطع المستعين أن يواجهه منفرداً فاستصرخ **ابن تاشفين** أمير المرابطين، فأمدّه بجيش يتألف من ألف فارس، وستة آلاف راجل، وطلب عون **ألفونسو** ملك قشتالة، فأمدّه بفرقة من الجند يقودها غرسية أوردونييث، وخلال الحصار توفى الملك **شانجه**، وتولى الملك بعده ابنه **بدرو**، فلم يقنع بالحصار، وآثر النزال، فسار فى قواته لملاقاة المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة فى «الكرازة» الواقعة قرب وشقة، استمرت طوال يوم كامل، وبلغت خسائر الفريقين قدراً كبيراً، وهزم المسلمون أخيراً، بعد أن فقدوا هم وحلفاؤهم اثنى عشر ألف قتيل، أو نحوها. وكان بين القتلى **غرسية أوردونييث** قائد الجنود القشتاليين. وتحدد المصادر المسيحية يوم ١٨ من نوفمبر عام ١٠٩٦ تاريخاً لهذه المعركة.

● **مَرتْين مونيوث** Martin Munoz، كان فارساً وحكم مدينة منت ميور، وتقع الآن فى البرتغال، وحمل لقب وزير alguacil، ثم عينه **ألفونسو السادس** كونت لمدينة قلمرية، وهى فى البرتغال أيضا، وظل فى وظيفته هذه من عام ١٠٩١ إلى عام ١٠٩٤، حيث خلفه فى منصبه الكونت **دون رامون**، كونت جليقية وصهر الملك، وربما تم إقصاؤه من منصبه فى ظروف غير ودية، لأن اسمه سيختفى بعد ذلك من الوثائق الملكية، وكل ما نعرف عنه بعد ذلك أنه فى نفس العام الذى عُزل فيه ذهب لينضم إلى السِّيد فى بلنسية، غاضباً من الملك لإقصائه عن منصبه، وليس من السهل تصور أنه صحب السيد طوال أيامه، أو أنه كان معه عندما نفاه الملك. وسوف يظهر اسمه مرة أخرى، عام ١١١١م، عندما رحل من أرجون إلى قشتالة، لكى يحارب الملكة **أرّاكة**، أرملة الكونت **دون رامون**، لصالح **ألفونسو الأول** ملك أرجون.

● **دون إنريك** Enrique، **ودون رايموندو** Raimundo، وينحدران من أصول فرنسية، وينسبان إلى بورجونيا Borgona، وجرت عادة الفرسان الأمراء من جنوب فرنسا أن يهبطوا الأندلس المسيحى بحثا عن زوجات أميرات، يصبحون معهن ملوك المستقبل، أو فى الأقل من كبار الأغنياء. وهما ابنا عم، وتزوجا من بنتى **ألفونسو السادس**، أولهما، **إنريك**، تزوج من **تيريزا**، ابنة غير شرعية للملك من عشيقته **خمينا**، وتزوج الثانى، **رايموندو**، من الأميرة **أراكة**. وقد أصبحا بعد الزواج من الشخصيات الرئيسية فى بلاط ملك قشتالة، وما لبث ألفونسو أن تنازل لرايموندو عن الأراضى البرتغالية ليحكمها، وتكون لخلفه من بعده، فى نطاق التبعية لملك قشتالة، وأخذت المنطقة التى يحكمها تتسع، فضم إليها جليقية، وسمّورة، وعين رايموندو ابن عمه إنريك حاكماً على مقاطعة قلمرية، غير أن أطماع الأميرين كانت كبيرة، فلم يقنعا بهذه المنطقة، كانا يحلمان بأن يخلفا ألفونسو السادس على كل مملكته الواسعة، وفعلا كان من المقرر أن يكون رايموندو وارثا للعرش، فلما رزق ألفونسو بابنه شانجه، من الأميرة **سيِّدة**[1]، أبعد رايموندو، لأنه كان يضيق بزهوه، ولا يرتاح إليه. ثم توالت الحوادث، وكانت أكبر منها، فلم يعد يحسّ بها أحد، غير أن حكمها لمنطقة البرتغال، كان اللبنة الأولى فى انفصال هذا الجانب من الأندلس المسيحى، ليصبح فيما بعد دولة مستقلة تحمل اسم البرتغال.

---

(١) انظر صفحة ١٥١ من هذا الكتاب. والإشارة الوحيدة فى المصادر العربية لهذه القصة، وردت فى مصدرين فقط فيما أعلم : البيان المغرب لابن عذارى، جـ٤ ص ٥٠، وفتوى لأبى العباس أحمد بن يحيى الونشريشى من علماء القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكلاهما لم يذكر اسمها، ولكنه ورد فى المدونات الأسبانية على الصورة التالية Zaida، ودرج المؤرخون العرب، متابعة للأستاذ محمد عبد الله عنان، فى رسمه بالعربية (زايدة)، وفى ضوء دراستى له، وفى ضوء الصوتيات الإسبانية أعتقد أنه (سيدة).

● **الكونت دون فرويلا دياث** Don Fruela Diaz، وهو شقيق **دونيا خمينا** زوج السيِّد، وكونت ليون وأشتورياش ورئيس التشريفات فى بلاط **ريموندو** صاحب جيلقية والبرتغال، وقد عرضنا له فيما قبل، فهو من الشخصيات التى ترد فى الملحمة، ولا نعرف شيئاً عن دون فرويلا هذا، أكثر من هذه الإشارة العابرة.

● **ألبار ألبارث** Alvar **وألبار سلبادورث** Alvar Salvadorez، وهما من أتباع السيِّد، ونجد اسميهما فى الوثائق الخاصة بزواجه من **دونيا خيمينا**، والأول طبقاً للوثائق وللملحمة كان ابن لخ له. وتذكر الملحمة ابن لخ ثانياً له هو **بير، أو بدور، برمودث** Per vermudéz، وكان حامل علمه، وهو شخصية حقيقية، فقد اضطلع بمهمات فى بلاط الملك **شانجه الثانى**، ويظهر أيضاً فى الوثائق الخاصة بالملك **ألفونسو السادس**، المتصلة بأعوام ١٠٦٩ -١٠٨٥م. وهناك **مونيو جوستيوث** Muno Gustioz، ورباه السيد، فأخلص له وظل طوال حياته من أتباعه الأوفياء، ويبدو فى الوثائق كما لو كان من أقارب دونيا خمينا زوج السيِّد، فقد ظل مرافقاً لها بعد ترمّلها، وبعد أن تخلت عن بلنسية. والتجأت إلى قشتالة، وحتى وفاتها فى عام ١١١٣م. ثم **ألبار دياث** Alvar Diaz، ويظهر فى وثائق البلاط القشتالى الخاصة بأعوام ١٠٦٨ إلى ١١١١م، وفى مرات كثيرة يأتى اسمه باعتباره حاكماً لمدينة أكا Oca، مدينة قديمة، كانت تقع قريباً من برغش.

وتبقى بعد ذلك **شخصية دون خيرونيمو** Don Geronimo، مطران بلنسية وهو شخصية تاريخية حقيقية، راهب فرنسى الأصل، وكان مغامرا تملأ رأسه الأفكار الصليبية، وذهب إلى بلنسية قبل موت السيد بعامين، أى فى سنة ١٠٩٧، ليفيد من جاه السيد، وليقوى عنده الاتجاه المسيحى، وكان يشارك فى

القتال إلى جانبه، ويطلب أن تكون الضربة الأولى له، وهو إلى جانب ذلك، تاريخياً وفى الملحمة، ذو ثقافة واسعة، وميل أدبى ظاهر. ولعب دوراً بارزاً فى تحويل مساجد بلنسية إلى كنائس، ولم تضع جهوده عبثاً، فقد منحه السيد ضيعة واسعة فى جيالة، إحدى ضواحى بلنسية.

ولدينا ثلاث شخصيات أخرى هى : **فيلث مونيوث** Félez Munoz، ابن لخ السّيد، و **مرتين أنتُلنيث** Martin Antolinez ، البرغشى الوف، و **جليندو غرسية** Galindo Garcia ، الأرجونى الجرىء، ولا تظهر أسماؤهم فى أية وثائق تاريخية ربما لأنهم من غمار الناس، أو لأن أسماءهم شابها تحريف فى ألسنة العامة، ثم جاء الشاعر فالتقطها منهم كما هى.

ثم **يوسف بن تاشفين** أمير المرابطين، وقد حكم من ١٠٦١ إلى ١١٠٦م، وأظنه فى غير حاجة إلى فضل بيان، يكفى أن نذكر أنه كان على رأس حركة إسلامية إصلاحية، تأسست فى القرن الحادى عشر الميلادى، على يد رجل مسلم تقى يدعى **عبد الله بن ياسين**، يقيم فى رباط من جزيرة تقع فى منتحى نهر النيجر، على مقربة من مدينة تنبكتو، وموقعها فى مالى الآن، وكان أعضاء الجماعة فى البداية غالبا من «لمتونة»، وهى فرع من قبيلة «صنهاجة» البربرية، ويعيش أعضاؤها عيشة البدو فى الفلوات الواسعة من الصحارى التى حولهم، ويغطون وجوههم بأثمة تحت العيون، كما تفعل سلالتهم من «الطوارق» فى الجزائر حتى اليوم، ومن ثم كانوا يُسمون بالملثمين أحياناً، وأخذوا على عاتقهم نشر الإسلام فى القبائل التى حولهم، وكُللت جهودهم بالتوفيق، فما هى إلا سنوات حتى أصبحوا سادة الشمال الغربى لأفريقية، ثم سادة الأندلس فى آخر الأمر. وفى عام ١٠٦٢ أسس **يوسف ابن تاشفين** مدينة مراكش، وقد أصبحت عاصمته وعاصمة أخلافه من بعده. وقد ارتبط

تاريخه، وتاريخ المرابطين أيضاً، بالأندلس منذ موقعة الزلاقة فى ٢٣ من أكتوبر عام ١٠٨٦، حين استغاث به ملوك الطوائف المسلمون، فاستجاب لصريخهم، وأنقذهم من مخالب أعدائهم، ولكنه رأى أخيراً أنهم ليسوا على مستوى الأحداث التى حولهم، فأزالهم عن عروشهم، وضم الأندلس إلى إمبراطوريته، واتخذ من إشبيلية عاصمة له فى شبه الجزيرة، وبقى الأندلس فى حوزة المرابطين، وأمضى هؤلاء أيامهم به فى صراع لا يهدأ مع ملوكه المسيحيين، إلى أن سقطت الدولة المرابطية فى المغرب والأندلس بقيام دولة الموحدين.

الشخصية الإسلامية الثانية التى ترد فى الملحمة، ترسمها المخطوطة فى هذه الصورة اللاتينية Bucar ، وأرى أن المقصود به هو **أبو بكر سير بن تاشفين**، فقد كان فى الأندلس، ومعاصراً للسِّيد، وقاد الجيوش الإسلامية لحصار بلنسية. ويرى **منندیث بیدال** أن دون ذلك صعوبات لغوية كبيرة، يستحيل معها الاعتقاد بأن Bucar هى تطور لكلمة : أبو بكر. وأرى أنه ليس من الضرورى أن يكون نطق اسم أبو بكر بين المسيحيين هو على النحو الذى ورد مكتوباً به فى مخطوطة الملحمة الوحيدة Bucar ، فنجرى عليه قواعد علم اللغة، وقوانين التطور الصوتى، والأقرب إلى التصور أن يكون الناسخ، أو الشاعر، كتبه بطريقة عشوائية لا تصور نطقه بدقة، وإنما لمجرد تذكره فحسب، ومن ثم كان ينطقه بطريقة لا تمثل الصورة التى كتب فيها، ومثل هذه الهفوات فى كتابة الأسماء العربية بحروف أجنبية، كانت شائعة فى تلك الأيام، ولا تزال حتى أيامنا هذه، ونفس الصعوبة نعانيها فى العربية حين نرسم الأسماء الأجنبية بحروف عربية.

والشخصية الثالثة، **تميم** ملك بلنسية، ويراه **بيدال** - ودائماً بيدال فيما يتصل بأية دراسة عن السيد - شخصية أسطورية، ولست أدرى كيف وقع

العالم الإسباني الكبير في هذا الوهم، صحيح أن تميماً لم يصبح ملكاً لبلنسية أبداً، ولكن كلمة ملك لم تكن تعني حينذاك ما نعنيه منها الآن، وإنما مجرد لقب اجتماعي رفيع، يطلق على أي حاكم قوي أو أمير شهير، **وتميم بن يوسف ابن تاشفين**، وكنيته **أبو الطاهر**، كان قائد الجيش المرابطي الذي التقى بجيوش قشتالة في موقعة أقليش عام ١١٠٨م، وهي الموقعة التي واجهت فيها الجيوش القشتالية هزيمة ساحقة، وفيها قتل **شانجه** الابن الوحيد لألفونسو السادس، وقُتل معه مؤدبه الكونت **غرسية أوردونييث**، عدو السيد اللدود، وقد بقي تميم في الأندلس، بعد وفاة والده، قائداً لجيوش المرابطين، على حين تولى أخوه **علي** إمارة المسلمين، وكان يسيّر شئون الأندلس في ذكاء ومقدرة وحنكة وتوفي في عام ٥٢٠هـ = ١١٢٦م.

وتبقى ثلاث شخصيات إسلامية آخرى ضائعة في ضباب التاريخ، وعبثاً حاولت في المصادر العربية، وما بين يدي من المصادر الإسبانية أن أمسك لها بخيط. أولهم **ابن غلبون** Abengalvon ، حاكم مدينة مولينا Molina ، مدينة إسلامية تقع قريباً من حدود قشتالة، ومن مدينة سالم، حيث أنشدت الملحمة، وهو معروف للشاعر تماماً، وهو صديق حميم للسيّد، ومحب للسلام، ومهذب للغاية وجواد كريم. ثم **غالب** Galib **والحارث** Faris، وتعرض لهما الملحمة في مقام النزال مع جيوش السيد.

وأخيراً **راكيل** Raquel **وفيداس** Vidas ، وهما يهوديان يعملان في الصيرفة، والإقراض بالربا والرهونات، في مدينة برغش، كبرى مدن قشتالة، وبديهي أن التاريخ، وبخاصة في العصر الوسيط، لم يكن يقف عند مثل هذه الشخصيات البعيدة عن مواطن الحرب والنزال، رغم أهمية الدور الذي تلعبه في توجيه الأحداث.

الملحمة والنقد

استمد الشاعر أحداث ملحمته من الروايات الشفوية، للأحداث التاريخية، كما كان يتداولها سكان مدينة سالم وما حولها، وسرعان ما وجدت طريقها للانتشار خارج النطاق المحلى للمدينة، فأصبحت تنشد فى مقاطعات أخرى، ثم ألهمت الشعراء الجوالين الذين جاءوا بعد شاعرها، احتذوا أثره، ونقلوا بعض أحداثه، وحتى وقعوا فيما وقع فيه من أخطاء.

كانت الملحمة شائعة فى الأندلس، وليس من الضرورى أن يكون ذلك الشيوع دواماً فى النص الوحيد الذى وصلنا، وإنما فى صورة أخرى دخلها كثير من التعديل والنقص، وربما الزيادة أيضاً. وناسخ المخطوطة الوحيدة التى لدينا، وقد كُتبت فى القرن الرابع عشر الميلادى، و «مدونة العشرين ملكا» وقد أوردت نص الملحمة نثراً، وكتبت فى نفس القرن، استخدما النص الأقل انتشاراً وشيوعاً فى عصرهما، توفيراً للقديم وحبا فيه، ومعارضة للأغلبية وخروجاً عليها. ذلك أن «المدونة العامة» وقد كُتبت قريباً من عام ١٢٨٩م، أوردت الملحمة كلها منثورة، ولكن فى صورة مغايرة. وبمقارنتها بالنص الشعرى الوحيد، نلاحظ أنها تعرضت لتغيير محدود فى القسم الأول منها، ثم لتغيير واضح وشامل ابتداء من الحديث عن فتح بلنسية، واستهدف الصقل الجديد لها، أن يستدرك ما نسيه الشاعر الأصلى، وأن يجعل من الحبكة أشد تعقيداً، وأن يمد فى أحداثها وأن يعطى الرواية شكلا أكثر فروسية من شكلها البطولى الساذج الذى كُتبت فيه. فإذا تجاوزنا القرن الثالث عشر، إلى نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر حين كتبت «مدونة السِّيد» وأوردت نص الملحمة

للمرة الثانية، ومنثوراً أيضاً، نجد التعديل أكثر وضوحاً وأوسع شمولا، فامتد إلى بدء الملحمة، وبقى فيما سبق سليما، أو يكاد، وفيها نلتقى بشخصيات جديدة لم تكن معروفة لنا من قبل.

من خلال هذا الصقل المستمر امتدت حياة الملحمة عبر القرون، وهى فى كل قرن، وبين كل جماعة، تلتقط أذواق السامعين وتتواءم معها، حتى إذا وصلنا إلى القرن الخامس عشر، تفرعت عنها أغان شعبية رومانثية، تتضمن بعض أبيات الملحمة، ولكنها تكسوها ثوباً جديداً من شعر طريف، وبعض هذه الأشعار مازال يتردد صداه حتى اليوم فى إسبانيا والبرتغال وشمال المغرب، عند من استقروا هناك، واتخذوا الإسبانية لساناً.

وبعد القرن الخامس عشر أنهك **فيليب الثانى** إسبانيا فى حرب دينية لا تنتهى، وشُغل عامة الناس بأمجاد فريدة، تتمثل فى اكتشاف إسبانيا لقارة كاملة، ولأول مرة فى التاريخ، ثم غزوها واستعمارها، وبنهضة أدبية رفيعة، لفترة دخلت تاريخ الأدب تحت اسم « العصر الذهبى »، فقد كان بعض أعلامه قمماً إنسانية خالدة، يكفى أن يرد فى خاطر المرء **سرفانتيس** مؤلف « دون كيخوته »، فى الرواية، و **كالديرون** و **لوبى دى فيجا** فى المسرح، فلم يعد المثقفون، إلا قلة عالمة، يذكرون شيئاً عن ملحمة السِّيد، وعندما طُبعت لأول مرة عام ١٧٧٩، لم يعرها أحد كبير التفات، لأن الحياة الإسبانية يومها، كانت فى جوانبها المختلفة، سياسية أو ثقافية أو اجتماعية أو أدبية، ذات طابع فرنسى خالص، أو كما يقول أحد كتاب ذلك العصر: « كان الناس يومها يأكلون ويشربون ويلبسون ويتحدثون على نحو فرنسى ». لكن من الحق أيضا أن أدب العصور الوسطى كان مجهولا لدى أوربا كلها، إن ألمانيا لم تعرف ملحمتها الشعبية Nibelungos إلا بعد تاريخ نشر ملحمة السِّد بأربعين عاما، واحتاجت

فرنسا إلى ستين عاما لكى تعرف ملحمتها «رولان».

وبينما كانت الملحمة تحظى بتقدير متواضع للغاية فى إسبانيا نفسها، جاءت الرومانسية الوليدة فى الخارج، وكانت تتعاطف مع العصور الوسطى، فألقت عليها مزيداً من الضوء، وشدّت إليها انتباه المثقفين. ففى عام ١٨٠٨ قال عنها الشاعر الاسكتلندى **روبيرتو سوثى** Rodberto Southey (١٧٧٤- ١٨٤٣)، وعكف طويلا على دراستها، وفك صعوبات نصها: «إن ملحمة السِّيد أجمل قصيدة كُتبتْ فى اللغة الإسبانية»، وعاد فى عام ١٨١٣، «فنعى على الإسبانيين أنهم لا يعرفون قيمتها الممتازة، وتضم تساريخ السِّيد شعراً، وما داموا لا يمزقون حجب الذوق الزائف الذى يحول بينهم وبين معرفتها، فلن يستطيعوا أبداً أن يبدعوا شيئا عظيما يدخل دائرة الفن الرفيع. ويمكن القول أنه بين كل الملاحم التى أُلفت بعد الإلياذة، فإن ملحمة السِّيد أشدها هومرية فى روحها، ولو أن اللغة فى شبه الجزيرة فى ذلك العصر، كانت ريفية وفى طور التكوين».

ودرس المؤرخ الأمريكى **جورج تكنور** Jorge Ticknor (١٧٩١- ١٨٧١) **الملحمة، فى كتابه «تاريخ الأدب الإسبانى»، ونشره عام ١٨٤٩**، وكان تعليقه عليها: «يمكن التأكيد بأنه خلال القرون العشرة الماضية، منذ انهيار الحضارة الإغريقية والرومانية، حتى ظهور الكوميديا الإلهية لدانتى، فإن أى بلد لم يبدع قصيدة من الشعر أشد أصالة فى شكلها، وتنضح واقعية وقوة وحيوية، مثل ملحمة السِّيد» بق أن نشير إلى أن الشاعر الإنجليزى لم يعرف ملحمة «رولان» الفرنسية على وجه التأكيد، ويُشك فى أن المؤرخ الأمريكى عرفها، لأنها نشرت لأول مرة عام ١٨٣٧ ولو عرفاها لربما استأنيا فى أحكامهما قليلا، وتخفّفا من التعميم شيئا. وانفتح أمامهما باب المقارنة عريضا واسعاً.

أما العالم الألماني **فرناندو فولف** Fernando woif (١٧٩٦ - ١٨٠٦). وكان متخصصا فى اللغات الرومانية بعامة، وفى الأدب الإسبانى بخاصة، فقد ركّز على الوحدة التى تربط بين أجزاء الملحمة الثلاثة، والتقائها فى إطار فنى واحد رسمه الشاعر. «ويتمثل جمالها فى أنها ليست عملا تجريديا أو فكريا خالصا، وإنما التقاط عفوى للواقع، ومن ثَم فهى أكثر إخلاصا وأشد تلقائية، وعَرْض الفن عاريا يدفع إلى أعماقنا بالحقيقة صافية، وبالواقع كاملا، ونحن نستنشق أحداثها بسيطة وساذجة ونفّاذة. والتكرار المستمر للكلمات والجمل، للتعبير عن نفس الأفكار والظروف، واستخدام ذات الأوصاف، يذكرنا بالملاحم الإغريقية».

وحاول **دَما إنار** Damas Hinard الفرنسى أن يحكم على الملحمة من خلال عصرها، واتخذ ملحمة «رولان» الفرنسية قاعدة للمقارنة، وكانت طبعتها الثانية قد صدرت خلال أعوام قليلة من طبعتها الأولى، وأصبحت مع الزمن نموذجا شهيرا، وانتهى إلى أن شاعر «رولان» أوسع ثقافة من السِّيد، ويعرف من العصر الكلاسيكى القديم الشيء الكثير، مما كان معروفا على أيامه، وجاءت ملحمته وليدة فكر صائب، واتسمت بالوحدة والبساطة فكانت بشيراً بالكلاسيكية الفرنسية للقرن السابع عشر، لكن تنقصه صفات الشاعر العظمى، والإحساس بالحياة الإنسانية، والقدرة على التعبير عنها. وجغرافية الملحمة رائعة، وشخصياتها غالبا متخيلة، أو تنتمى إلى عالم الأساطير، رءوسهم ضخمة، وأعمالهم تدخل فى دائرة المستحيل، فقرع الطبول فى ملحمة «رولان» يسمع على بعد ثلاثين ميلا، والبطل «توربين» وأربعة سهام فى بدنه، أو «رولان» ورأسه مقطوع، يتحرك ويقاتل كقديس والجيوش ضخمة، ٣٦٠ ألف مقاتل، و٤٥٠ ألف فارس، وخمسة فرنسيين قتلوا أربعة آلاف

مسلم، وفقدان الواقعية يبدو حتى فى العرض.

وعلى العكس من ذلك، شاعر السِّيد لا يجب أن يسرف فى الخيال، وإنما يستخدمه ليضع أمام أعيننا الحقيقة فحسب، وهو لا يقدِّم لنا لوحة لإسبانيا فى القرن الحادى عشر، وإنّما ينقلنا نحن إلى نفس القرن، ويجعلنا نشاهد الأحداث بأنفسنا. والشخيصات مرسومة بالألوان المناسبة، ونغم الحكاية ولونها يأخذ شكلا مناسباً مع كل حدث، فإذا عرض قصة رهن صندوق الرمل لليهوديين، أو أسْر كونت برشلونة، أو مبارزة «كوريس» أو اجتماع بلاط طليطلة، تحسَّ أنك فى حضرة قصاص ممتاز من القصاص المحدثين، قصاص من طراز ولتر سكوت مثلا.

ولكن كاتبا بلجيكيا من القرن التاسع عشر هو **ل. دى مونج** L. de Monge يرى أن مؤلف ملحمة «رولان» همجى موهوب الذكاء، ينضح بجهل عظيم، بينما شاعر السيد روح مثقف، يتابع من فوق واقع عصره مثلا أكثر سموا، ويدفع كل شيء بذكاء نادر إلى الهدف الذى ارتآه. فى «رولان» نصطدم بقسوة التقاليد، والوحشية، والتعصب، وفى السيد نجد الإنسان، والإحسان، والطلاوة، وباختصار فإن ملحمة السيد قد تكون أقل عظمة من ملحمة «رولان» ولكنها أقل همجية، وأكثر واقعية، وأشد حيوية، وأعمق إنسانية، وذات مشاعر تنساب مباشرة، وسريعا، إلى قلوب كل الرجال، فى كل الأوقات.

أما فى النقد الإسبانى فلا نجد إلاّ صدى خافتاً لإعجاب **سوتى** الرومانسى، ودراسة **فولف** المتعمقة، إلى أن يأتى العالم اللغوى **ميلا إى فُنْتنالس** Mila y Hontanals (١٨١٨-١٨٨٤م) فيملأ هذا الفراغ ويعرِّف أوربا فى عام ١٨٧٤، ولأول مرة، بمكان الملحمة الحقيق، بين مجموع الأدب

الملحمى القشتالى، وكان من قبل مجهولا. وإلى جانب ذلك قدّم لنا تقويماً فنّيا للملحمة، ممتازاً ومنصفاً. فرواية الشاعر ذكية، ودون أن يبتعد كثيراً عن الهدوء الجاد، نراه فى المواقف العائلية، ليّن الأسلوب رقيق المشاعر. وحين يعرض لقصة صندوق الرمل أو الأسد نلقاه ساخراً ضاحكا، وفى مأساة «كوربس» حزينا مهتما، ثم يقطع الرواية بعنف بالغ لحظة انتهائه من تتبع سير القتال.

والخصائص الجسمية والخلقية لشخصيات الملحمة تبدو مرسومة بوضوح وفى دقة، وهذه الميزات، رغم لغتها الجافية وغير المنتظمة، وأن الشعر خشن وغير مكتمل، ورغم غياب الجاذبية وضحالة ينابيع الفن، تسمح لنا بأن نصف ملحمة السيِّد بأنها ملحمة معلِّمة، نتاج عصر همجى وبطولى، خصبة فى صورها الشاعرية، وليست مجردة فى العمق من الشاعر النبيلة، ولو أنها على نحو واضح للغاية بعيدة عن المثل الأعلى للمسيحية، إلا أنها مرآةصادقة لسلسلة من الأحداث والتقاليد، تكمل الوثائق التاريخية، وهى قبل ذلك أثر لا مثيل له فى لغتها الأدبية، وفى تصويرها للإنسان.

وإذا كان **ميلا** قد عرفّ أوربا بالملحمة، فإن تلميذه **منندیث إى بلايو** أشاعها بين الأوساط الأدبية فى إسبانيا، مما جعل الأدباء المحدثين يقرأون الملحمة ويستلهمونها، ويوجز رأيه: «الأكثر فتنة فى الملحمة، أنها تبدو شعراً يُعاش، وليست كلاما يُنشد، وهى نتاج قوة غامضة تمتزج بالطبيعة نفسها، وسرها يفتقده الرجال المثقفون».

● ● ●

فإذا تركنا النقاد إلى الملحمة نفسها، وجدناها تراوح بين القص والحوار على كثرة فى الأول وقلة فى الثانى، وحين تنتقل إلى الحوار تفعل ذلك دون أن تمهدّ له بما يهيء السامع لادراكه، من كلمات : قال أو ردّ أو أجاب أو تحدثّ، وقلمّا تربط بين الجمل بأدوات العطف اللغوية.

والبطل فيها شخصية مثالية، رقيق مبتسم؛ مقدام فى الهجوم، عاقل فى النصح، مخلص للملك، لا يشهر السلاح فى وجهه حتى ولو تلق منه الأذى. ويحب زوجته وأبناءه، متسامح مع أتباعه، بل ومع المهزومين أمامه، مستقيم فى آرائه، عارف بالطباع الإنسانية، صاحب سخرية حقيقية، متدين أحيانا، وملحد أحياناً أخرى.

وصورّ الشاعرُ الملك **ألفونسو** على العكس من **السِّيد** البطل : جعله غير ذى رأى، أسير رجال البلاط، يملأون سمعه بآراء سخيفة، وبأكاذيب لا تنتهى، وغضبه ضد السِّيد عنيف، وليس له ما يبرّره، وعندما نفاه هدّد سكان برغش بأقسى العقوبات إن هم آووه أو باعوا له طعاماً، وهمّ بأن يردّ السِّيد إلى عفوه ثم تراجع فى رأيه. غير أنه حاول أن يعوضه عن مظالمه بألوان من الحنان المتوالى، وبدا له السِّيد. بالرغم من غيرة فرسان الملك منه، كريماً فى أعماقه، مخلصاً فى ولائه، مثله لا يختلس شيئاً من الغنائم، وقد أرسل ليجبيها.

وإلى جانب شخصية السِّيد وألفونسو، فإن الشخصيات الثانوية فى الملحمة تأتى محددّة الصفات، **فرتين أنتولينيث** برغشىّ وقُّ، **وألبار هانييث** عاقل مخلص، وسفير ثقة، وفارس عملاق، **وبدرو برمودث** شجاع مندفع، عريض العمل قليل الكلام، **ومونيو جوستنيوث** ربيب السِّيد، الساخر من

جين أميرى «كاريون»، **وألبار سلفادورث** الثقة، والأرجون **جلين غرسية** النبّال الجرىء، وقاما على حراسة بلنسية عندما تركها السّيد ليلتقى الملك، والمطران **دون خرونيمو** رب السيف والقلم وهكذا...

ووسط هؤلاء المحاربين يلفهم صخب المعارك، ويفتقدون هدوء السلام، تظهر **دونيا خيمينا** وبناتها، فتشيع جوًّا من الحنان ولطف الأنوثة، فدونيا خيمينا نبيلة وابنة فارس، وزوجة شريفة، تحترم زوجها وتخلص له، رقيقة المشاعر فى الحب وعند الحزن، تجزع من طبول الحرب، وتميد أمام ضجيج المعارك، وبناتها: إلبيرا وسول بيضاوان كصبح يوم صاف، لم تترك على ملامحهن أيام بُعدهن عن الأب منفيًا أية سمات قاسية أو حزينة، وبانتقام زوجيهما منهما يصبحان من الشخصيات الرئيسية فى البناء الدرامى للملحمة.

وفى مقابل هذه الشخصيات النبيلة يقدم لنا الشاعر طائفة أخرى من الشخصيات غير راض عنها. فعرسية أوردونيث يعار من السّيد، ومستشار ردىء للملك ولأسرته، انهارت عضلته سد أن أسره السّيد فى «قبرة» وعفا عنه، ومن يومها حمل لقب «كنت قبره». وكونت برشلونة جبان مستهتر، وأسور جنثالث طويل اللسان، طفيلى نهم، صديق الموائد الغنية، ومعبود الأطعمة الجيدة. وأميرا «كاريون» دييجو وفرناندو، مصدر كل سوء يُدبر، نهبان إلى ثروة السّيد، مزهوان بأسرتهما، غير أنهما لا يحترمانها واقعاً، وهما فارسان طيبان، ولكنهما جبانان عند اللقاء، جبانان حتى الرعب كما وقع منهما فى حادث الأسد[1]، ثرثاران، ينتقمان توهما، كما صنعا مع زوجتيهما، جلداهما، وتركاهما عاريتين، نصف ميتتين، انتقاماً من سخرية الحاشية منهما، وملاحقتهما بالنكات، لفرارهما مرعوبين عند انطلاق الأسد من مربضه فى حديقة القصر.

(١) انظر القصيدة رقم ١١٢ من النص.

وهناك اليهوديان، **راكيل وفيداس**، وقد فجاهما الشاعر بعدّان النقود التى كسباها، لا يثقان فى أحد، ولا يدفعان قبل أن يقبضا، والحياة عندهما أن يربحا شيئاً، يتشاوران فى كل شىء، ويقضيان كل أمر فى السر، فرحين ببريق الثراء المقبل، فالصندوقان اللذان رهنهما السِّيد فيهما كل ثروته، ومن نصيبهما بالتأكيد، فالملك لن يرضى عنه، ولن يعود من المنفى قبل عام، وإذن فكل ما بداخلها من جواهر ومال سيكون من نصيبهما.

والشخصيات الأسطورية والقصصية، وهى قليلة، يأتى بها الشاعر لكى يثبت معها بعض الحقائق فى أعماق مستمعيه، فالملاك جبريل يظهر للسِّيد فى آخر ليلة يمضيها فى قشتالة، قبل أن يضرب فى أرض الأندلس منفيًّا، يقدمها الشاعر دليلا على براءة السِّيد، وأن الله لن يتخلى عنه، ولن يحرمه من رعايته، وهو يحميه ويعده بالنصر ما امتدت به الحياة. ومن يدرى فلعلّ هاجساً حقًّا فاض فى أعماق السيد، وبدا له حلماً عندما أفلت اللاوعى من سيطرة الشعور.

والسِّيد فقير جدًّا، ولكى يواجه مطالب العيش له ولرجاله، يلجأ إلى الحيلة، يملأ بالرمل صندوقين، مزخرفين مذهبين، مغالاة فى الخداع، ويدفع بهما إلى اليهوديين لكى يرهنهما، ويحصل فى مقابلهما على مال، ثم يقارن بين فقره، بطريقة غير مباشرة، وبين نهم اليهوديين.

وتعكس الملحمة بطريقة إنسانية ومثيرة الحياة اليومية، والتقاليد، وأفكار العصر، فى أسلوب أقل لمعاناً، ولكنه أكثر وفاء للواقع، ومع أن الشاعر يلتقط مادته من الروايات والحكايات الشفوية لمدينة سالم لكنه يقدم لنا من خلالها ما يساعد على تصحيح أخبار المدونات، أو يكملها، أو يحدّد مكان الأحداث. وندرك منها أن الثأر فى الواقع، كما هو فى الملحمة، واجب عائلى، تضطلع به

الأسرة كلها، وأن غضب الملك كاف لنفى المرء ومصادرة أمواله دون أدنى محاكمة.

لا نجد فى الملحمة أى صدى للطبقات الاجتماعية، وأحداث الملحمة تجرى بين طبقة النبلاء مولدا أو انتسابا، غير أن هؤلاء النبلاء يتفاوتون درجات داخل الطبقة نفسها. ولكن الشاعر، وهو من الشعب، وإلى عامة الشعب كان يتوجه بإنشاده، معاد لطبقة النبلاء، ومن ثَم فهو يقدمها لنا جبانة مخنثة، تعيش حياة طرية وغضة، وهو يحترم الملك، حتى عندما يظلم السَّيد، ويتحدث عنه بوقار، لأنه الدعامة التى يعتمد عليها عامة الشعب، فى مواجهة مظالم الأمراء والفرسان والإقطاعيين. وعواطف الشاعر تتراوح بين السَّيد والملك، ولو أنها إلى الأول أميل، وهو يقدم لنا صورتين لعلاقة السَّيد بالملك: الأولى التابع فى خدمة الملك، والأخرى التابع الثائر عليه، وحياة السَّيد قسمة بينهما، لقد نفاه الملك وصادر أمواله، وقام هو من جانبه بالإغارة على مملكة قشتالة، فنهب ودمّر وخربّ، ولكنه مع ذلك لا يريد الحرب مع الملك، ويرسل له هدية خير ما يصيب من الغنائم.

والأسرة فى الملحمة ذات مدلول واسع، قريب من معنى الأسرة عند عرب الجاهلية، فهى مجموعة كبيرة، وينسب إليها حتى أولئك الذين يربون فيها ولو لم يكونوا منها، وكان رب الأسرة يربى دائماً أكثر أتباعه ولاء، والأسرة متماسكة فيما بينها، وتجمع الأولاد والأحفاد والأعمام والأقارب الأباعد، وكلهم يواجهون متاعب الحياة متضامنين، والإهانة التى تصيب واحدا، تعد كما لو كانت موجهة للجميع، والثأر لها واجب الأسرة كلها. ولا تلعب المرأة دوراً بارزاً فى الأحداث، ولكنها وراء بعضها، ولا تتكلم فيها إلا لكى توقّر زوجها، أو أباها،

أو لتشكر حمايته لها خاشعة، لطيفة حلوة حتى وهى تتقبل قسوته. وليس فى الملحمة أثر لغزل حسّى أو عُذرى، وليس ثمة فساد ولا تحلل، والسّيد لا يقتحم معاركه كبقية الفرسان على أيامه، بفكرة أن يُظهر فروسيته وشجاعته لصديقته أو عشيقته، وإنما يفكر دائما فى زوجته العزيزة والشريفة، وفى وجودها يحس بعزيمته تزداد صلابة وقوة.

وتقدم لنا الملحمة تفصيلات عن الحرب ونظمها؛ لا تكتفى بأن تقول: التقى الجيشان صفين، وتقدم المبارزون، وإنما تقدم لنا ألوانا منها، كالطليعة والغارة والمعركة الفاصلة، وتصورّ ما يجرى فيها من كر وفرّ، ثم تتابع الغنائم، وهى الهدف من أية معركة، وتقف عند تقسيمها. وهى معرض حافل بألوان الأسلحة التى تستخدم فى القتال، فهناك السيوف القاطعة ذات المقابض الجميلة، والنصال والسهام والحراب، والفئوس القادرة على اختراق الدروع، وقطع الأجسام، وخلع السواعد، والدروع والخوذ، والرايات والأعلام، والخدع الحربية وتضليل العدو، وإرسال العيون، واستخدام الجوع، والحصار الشديد وقطع الماء وإغراق السهول. ويمضى بنا الشاعر عبر الجبال والسهول والوديان والحصون والقلاع، وكلها أمكنة معروفة، ولها من تاريخ الأندلس نصيب.

ثم يحدثنا عن بعض العادات الاجتماعية، ومراسم البلاط، ومظاهر السيادة عند الملك، والتبعية عند الفرسان؛ فتقبيل يد الملك دلالة على التبعية والولاء، والانحناء أمامه مظهر يقتضيه الإجلال والمبالغة فى الإخلاص، وأخيراً فإن السيد يجثو على قدميه ليقبل قدمى الملك، ويلتقط حشائش الأرض بأسنانه، إظهاراً لعودته إلى ساحة الملك تابعاً ورعيّة.

وينسى الشاعر أحياناً، وهو جوال منشد، فيصف الشىء الواحد بوصفين مختلفين فى مكانين، «فكوفية» السّيد من قماش رقيق escarin، وهى فى مكان

آخر من قماش rancal، ثم يقول على لسان ألبار هانيبث للملك، إن السِّيدانتصر فى خمس معارك فاصلة، ولكنه لا يعد منها غير اثنتين. وفى الموقعة التى جرت مع يوسف بن تاشفين، يذكر أن ألبار سلفادورث وقع أسيراً فى قبضة أمير المرابطين، ثم يعود فيجعله فى صحبة ألبار ألبارث لا يفارقه، دون أن نعرف كيف تحرر من الأسر. ويجعل السِّيد يبدى إرادته فى أن يرسل خيمة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، وقد غنمها فيما غنم بعد انتصاره فى المعركة، هدية إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، ولكنه عند إرسال الهدايا وتعدادها لا يعرض لها. ومن يدرى فربما صححها الشاعر، هى وغيرها، فى روايات أخرى، لأننا نجدها مصححة فى المدونات التى نقلت الملحمة نثرا.

ومعلومات الشاعر المسيحية متواضعة للغاية، ويخطىء فى أشياء جوهرية يعرفها أى مسيحى عادى يتردد على الكنيسة، دون أن يكون مثقفاً، مثلا يتصور أن كلمتى Calvario و Golgota اسمين لجبلين مختلفين فى فلسطين، وأن اليهود أمسكوا بالمسيح على الجبل الأول، وصلبوه على الجبل الثانى. والحق أنهما اسمان لجبل واحد، وكل ما هنالك أن الكلمة الأولى تطلق عليه فى اللغة اللاتينية بينما الثانية اسمه فى اللغة العبرية، أما الجبل الذى أمسكوا بالمسيح عنده، فهو جبل الزيتون[1].

وثمة تفصيلات صغيرة يسكت عنها الشاعر، ولا تعد نسيانا، فقد وعد السِّيد بأن يهدى كنيسة بلنسية الطبل الذى فى جيش ابن تاشفين بعد النصر، ثم لا يذكره بين الهدايا. وخلال رحلة دونيا خيمينا من قشتالة إلى بلنسية، ونزولها ضيفة ومن معها على ابن غلبون حاكم مولينا، بالغ فى إكرامهم، ومن

(١) انظر القصيدة رقم ١٨.

ثم وعده ألبار هانييث بأن يحدّث السيِّد عما أسداه إليهم من جمائل ومعروف، لكى يكافئه على حسن صنيعه، غير أنه لم يذكر شيئاً عن مكافأة السُّيد له، رغم أنه وصل معهم إلى بلنسية.

ويجعل إساءة أميرى «كاريون» لزوجتيها، بنتى السُّيد، والانتقام منهما، بعد استيلائه على بلنسية، والحق أن ذلك، إذا جرينا على أن هذا الزواج قد تم فعلا، يجب أن يكون حدث قبل فتح بلنسية.

لا توجد فى الملحمة فكرة وطنية أو قومية، والشاعر يتحدث عن بطل شعبى، يحظى بإعجاب الجميع، أيًّا كانت المقاطعة التى ينشد فيها، وأيًّا كان الجمهور الذى يستمع إليه، ولو أنه كان دائما يراعى أذواق المستمعين، فيوائم بين ما يقول وما يريدون، ولا أظن أن ذلك مما يعاب فيها، فتلك أفكار كانت خارج اهتمامات العصر.

وأخيراً فإن ملحمة السيد، كإبداع أدبى ينتمى إلى العصر الأدبى الأوربى الوسيط، تتميز كأى عمل أدبى آخر بين الشعوب الرومانية، بغياب الشخصية وفقدان التنوع، فكل الشعراء، فى كل البلدان، يدورون حول نفس القضايا، ويُشغلون بنفس الاهتمامات، وأكاد أقول، ويستخدمون نفس الصور والمعانى.

تأثيرات عربية فى الملحمة

هناك ثلاث نظريات حول نشأة الملاحم القشتالية بصفة عامة، بعضهم يردّها إلى التأثير الفرنسى، والفريق الثانى يردّها إلى أصل جرمانى قديم، وأحدث الدراسات وأكثرها موضوعية يردها إلى أصل عربى.

الفريق الأول يأتى على رأسه الشاعر الفنزويلى، والكاتب السياسى **أندريس بيو** Andrés Bello (١٧٨١-١٨٦٥)، والعالم الفرنسى الشهير **جاستون بارى** Gaston Paris((١٨٣٩-١٩٠٣)، وهو حجة فى تاريخ الشعر الفرنسى خلال العصر الوسيط، وتنهض وجهة نظرهما على دعامتين : أن الشكل العروضى فى الملاحم الفرنسية والقشتالية متشابه فى نواح كثيرة، ألوان من التشابة لايمكن أن تجئ صدفة وعفوا. والدعامة الثانية أن الإنتاج الملحمى بدأ فى الأندلس فى الوقت الذى كانت فيه الملاحم الشعبية الفرنسية قد وجدت من زمن طويل، ولم يحدث أن صيغ من أى حادث تاريخى إسبانى ملحمة تُغنّى، قبل أن تشيع الملاحم الفرنسية فى إسبانيا، قريبا من نهاية القرن الحادى عشر، أو أوائل القرن الثانى عشر.

لم يرتض العالم الإسبانى **منندیث بيدال** وجهة النظر هذه ويرد على الدعامة الأولى منها، بأن عروض الملاحم الإسبانية لا يعرض لنا فى صورة عالية من الإجادة والدقة على النحو الذى كانت عليه الملاحم الفرنسية، ولو كانت الأولى تقليدا للثانية لسارت على هديها فى هذا المجال. لقد مرت الملاحم القشتالية بتطور ذاتى وبطىء قبل أن تبلغ هذا القدر النسبى من الإجادة فى عروضها، وفى حالات كثيرة نجدها تخضع لإضافات لغوية تقتضيها حركة

الروى، وليس لها فى الفرنسية شبيه.

ويرد الدعامة الثانية، بأن الملحمة الفرنسية دخلت إسبانيا فى نهاية القرن الحادى عشر وأثّرت فى ملحمة السِّيد، وأناشيد أخرى تالية ذات صفة ملحمية، ولكن قبل هذا القرن، أى فى القرن العاشر، كانت توجد شواهد ملحمية قشتالية مثل أسطورة الكونت **فرنان جنثالث**، وملحمة «سمورة»، وكلها كُتِبتْ بعد قليل من وقوع الحوادث التى تتغنى بها، وتُعالج فيها الموضوعات بطريقة تغاير ما هو متعود فى الملحمة الفرنسية.

ويتبنى **بيدال** وجهة النظر الثانية، فيرى أن الملحمة الجرمانية هى الأصل لكل من الملاحم الفرنسية والقشتالية، وهى نظرية تجد معارضة شديدة من الدوائر العلمية الفرنسية، لأسباب قومية وشعورية، ويبنى رأيه على أساس أن بعض العادات الجرمانية العنيفة، وغير المتمدينة، وتعيش فى الملاحم التى أنشدت جنوب جبال البرانس وشمالها، وأوضحها الثأر، فلا شىء يغسل الدم فى الملاحم الجرمانية كالدم، والثأر مسئولية جماعية، تنهض به الأسرة كلها، ويتوارث من جيل لآخر، ويرتبط به شرف العائلة، ويمكن أن يؤخذ من المعتدى أو أقرب الناس إليه، وهى تقاليد يجهلها القانون الرومانى، والقانون الإسبانى القوطى، وضد تعاليم الكنيسة. وكذلك بعض تقاليد المجتمع، كنزال الفرسان للوصول إلى الحقيقة، واعتبار المهزوم مخطئا أو خائنا، ودعوة الفرسان للتشاور إزاء القضايا المشتركة، وإعطاء السيوف أسماء خاصة، وعدم التسامح أو العفو فيما يمس الشرف، والصلة بين السِّيد والتابع وما تفرضة من تعاون مستمر، وإجارة المرأة للمستجير شىء مقدس.

وإذا كان رفض الفرنسيين لفكرة التأثير الجرمانى وليسد عوامل نفسية

وشعورية وقومية، فرفض فكرة التأثير الفرنسى، والقول بالتأثير الجرمانى وليد عوامل مشابهة لتلك، فالصلات العلمية، من زمن طويل، بين مراكز البحث فى إسبانيا وألمانيا، قوية متينة، والتعاطف بينهما واضح بيِّن، وليست هى كذلك بين الفرنسيين والإسبان. ولم يستطع **بيدال**، وكان فى مجال الدراسات العربية مستطيعا بغيره، لأنه لا يعرف العربية ويعتمد على المترجمات، أن يدرك أنَّ ما جعله سببا جوهريا للقول بالتأثير الجرمانى وهو الثأر ومظاهره عادة عربية متأصّلة، وما تزال بقية من ظواهرها حية حتى اليوم فى البوادى، رغم أن الإسلام يحرّم الثأر، وأن القوانين المدنية تعاقب عليه.

أما النظرية الثالثة والأخيرة، فداعيتها العالم البلنسى الجليل **خوليان ريبيرا**، وتنهض على أن الأندلس عرف بعد الفتح الإسلامى بقليل لونين من الأدب الشعبى، عربى كُتب فى العامية، وإسبانى كُتب فى الرومانثية، متأثرين فيما بينهما ومؤثرين، فى الشكل والمضمون. وإذا كنا نعرف أكيداً أن الزجل ابتدع فى الأندلس، وصيغ فى عربية عامية، أو مزيج منها ومن الرومانثية، قريباً من نهاية القرن التاسع الميلادى، أو أوائل العاشر، فما من سبب يجعلنا نعتقد أن الزجل وقف عند حد الشعر الغنائى، ولم يتجاوزه إلى الشعر الملحمى، لأن الشعوب عندما تُغنى فى بدء حياتها تتغنى بكل شىء، وياتى التميز بين ما هو غنائى ذاتى، وما هو ملحمى موضوعى، فى مراحل متقدمة من تطورها الفنى.

والحق أننا فى القرن التاسع، والقرن الذى شهد مولد الزجل، نجد إشارات لقصيدتين ذواتى طابع تاريخ، وخصائص قصصية أو ملحمية، إحداهما **للغزال**، يحيى بن الحكم (٧٧٠-٨٦٤ م) من سفراء **عبد الرحمن الثانى**، والثانية **لتميم بن علقمة**، (٨٠١-٨٩٦ م)، وكان وزيراً لثلاثة أمراء أمويين : **محمد والمنذر وعبد الله**. ولسوء الحظ فإن كلتا القصيدتين

ضاعتنا، رغم شيوعها فى العصر الذى قيلتا فيه، وجاءتنا فى وصفها إشارات قصيرة، ولكنها كافية لكى نعرف الآن، فى اطمئنان واثق، شيئاً عن شكلها الشعرى، ومضمون كلتيهما. **فابن الأبار** فى كتابه «الحلة السيراء» يورد ترجمة مختصرة لتميم يضمنها هذه الفقرة: «وله الأرجوزة المشهورة فى ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها، والخلفاء فيها، ووصف حروبها، من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم». ولمزيد من توثيق الخبر نذكر أن **ابن القوطية** المؤرخ، وعاش فى الجيل التالى مباشرة لجيل تميم، فقد توفى عام ٩٧٧م أشار إليها فى كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» ولكنه لم يورد منها بيتاً واحداً.

أما يحيى الغزال فالأخبار عن ملحمته أوفى تفصيلا، تقول الرواية إنه كان عائداً من سفارة فى بلاد النورمانديين، أى الدنمرك والنرويج فى عصرنا الحاضر، فاضطر إلى البقاء فى مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela، وتقع فى أقصى الشمال الغربى من إسبانيا، وخضعت فترات قصيرة ومتقطعة للحكم الإسلامى، ويمكن القول بإن أحداً من المسلمين الوافدين لم يتخذها سكناً دائماً، لبردها القاسى، وأمطارها الغزيرة، وثلوجها الدائمة، وانطلاقاً من هذه الحقيقة لا نشك فى أن الرومانثية كانت لغة الحياة فيها لكل القاطنين، حتى ولو وُجد بينهم بعض المسلمين. والأرجح أن يحيى كان يجيد هذه اللغة إلى جانب لغات أخرى، ومع هؤلاء القوم، وبعيداً عن شواغل الحياة، عكف على نظم أرجوزته عن فتح الأندلس، ويقول عنها المؤرخ **ابن حيان** (٩٧٨-١٠٧٠ م)، وعرفها جيداً، إنها صيغت فى بحر الرجز، جميلة وعظيمة، تعرض لأسباب الفتح، وتقص وقائع الحرب وتصف المعارك التى حدثت بين المسلمين الفاتحين والقوط الحاكمين، وتذكر أمراء الأندلس بأسمائهم، وكتبت فى لغة

رقيقة، معتنى بها، وكانت متداولة بين أيدى الكثيرين.

كانت هذه القصائد إذن قصصية ومطولة، وذات مضمون تاريخى أو حربى، وتتخللها حكايات شعبية، وروايات شفوية مسيحية، فقد كان **الغزال** طبقاً للإشارات التاريخية، ينحدر من أصول مسيحية أندلسية، **وتميم** ولو أنه ينتمى إلى أسرة عربية، كان متزوجًا من مسيحية ذات أصل نبيل، ابنة كونت أندلسى، أى أنه فى بيته، مع سكنه، كان يتحدث اللغة الرومانثية، ويعرف شيئاً من أقاصيص أهلها وحكاياتهم، فليست هناك زوجة تسمع دائماً، إنها مع زوجها تتكلم أكثر مما تسمع. ولم يكن الغزال أو تميم وحدهما، وإنما هناك قصائد كثيرة، لشعراء عديدين، تقص بطولات **المنصور بن أبى عامر**، ومحاربين آخرين ممن عرفهم الأندلس، فى الشعر العربى، أو فى الزجل العامى، ضاعوا فى غمار التاريخ، كما ضاعت آثارهم، وكما ضاع كل تاريخ لمبدع الزجل نفسه. وفيما أرى فإن أكثر هذه القصائد تجديداً، وأقربها إلى العامية، هو الذى ضاع. أما القصائد التى جاءت على النحو التقليدى فقد وصلنا منها القليل، فابن عبد ربه (٨٦٠-٩٤٠) قال أرجوزة مجدّ فيها **الخليفة الناصر**، ووصف حروبه وغزواته، وأوردها كاملة فى كتابه «العقد الفريد». وأورد **ابن بسام** فى القسم الأول من كتابه «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» المجلد الثانى النص الكامل لأرجوزة **أبى طالب عبد الجبار**، من جزيرة شقر، وكان يُعرف بالمتنبى لبراعته فى الأدب، وتفننه فى العلوم، وإجادته المنثور المنظور، وقال عنها ابن بسام: «وله أرجوزة فى التاريخ أغرب فيها، وأعرب بها عن لطف محله من الفهم، ورسوخ قدمه فى مطالعة أنواع العلم، وقد أثبتها على طولها، لاشتمال فصولها على علم جليل، وبلغ فى الخبر طويل». وجاءت الأرجوزة فى ٤٥٢ بيتاً، بدأها بخلق الكون، واستعرض فيها تاريخ الأنبياء والخلفاء، ومن تلاهم من

بنى أمية، فدولة بنى العباس وبنى أمية بالأندلس والفتنة الأولى بقرطبة، وملوك الطوائف الثوار؛ وانتهى عند على بن يوسف؛ الأمير الثانى لدولة المرابطين.

هذا الشعر القصصى والتاريخى، فى اللغة الفصحى أو فى عامية أهل الأندلس، كان العامل فى نشأة الشعر الملحمى القشتالى والفرنسى، والثانى كان تالياً للأول فى الوجود، وانتقال هذا التأثير ليس بعسير، إذا وعينا الدور الذى لعبه الشعراء الجوالون فى إشاعة الثقافة، وكان بينهم شعراء مسلمون، ومن ينشدون بالعربية أو العامية أو الرومانثية[1]، بل إن انتقال الشعر العربى الفصيح إلى اللغة الرومانثية مترجماً، كان يتم بقدر أكبر مما نتصور، وضياع الأصل العربى لمرثية الوقشى فى بلنسية، وعرضنا لها فى مكان آخر، وبقاؤها فى الشعر القشتالى الشعبى شاهد على ما أقول[2]. وبديهى أن الشعر بالعامية، أى الزجل كان أكثر انتشاراً، وأشمل ذيوعا، مما عليه الشعر الفصيح.

تلتقى الملاحم القشتالية مع القصائد القصصية العربية الأندلسية فى ألوان من المشابهات لا تأتى عفوا، فكلتاهما تدور حول شخصية تاريخية حقيقية، وتعبر عن أحداث وقعت فى تاريخ قريب من اتخاذها شعراً، وأبطالها بشر فعلا، فلا تلجأ إلى شخصيات أسطورية أو خرافية لإعطاء القصة مزيداً من الأهمية، وتدور الحرب فيها بصفة عامة، حول قضايا داخلية، أو بسبب الصراع العائلى، وفى درجة تالية قد يكون عاطفيا، وفى كلتا الحالين تعالج الأمر على نحو طبيعى دون أن تستهدف مثلا أعلى محددا تذيعه وتدافع عنه. وخصائص المجتمع العربى تبدو واضحة، مهما كان الشعب الذى تتحدث عنه، ففيها

---

(١) انظر فصل: الشاعر الجوال ص ٣٦ من هذا الكتاب.

(٢) انظر فصل: مرثية بلنسية ضائعة فى كتابنا: دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

إجلال الكرم، وإحساس بالغ بالشرف، وحرص نادر على الثأر، والمبارزة فى الحرب، والصياح عند اقتحام المعركة، والغارة وتقسيم الغنائم طبقا لقوانين الشريعة الإسلامية، فخمسها للخليفة أو من يضطلع برسالته؛ والبقية تقسّم بين المقاتلين : للراجل سهم، وللفارس سهمان، وتتحدث عن الطلائع، واستخدام العيون، أو الجواسيس فى القاموس العسكرى الحديث. وتعكس على نحو دقيق واضح صورة التعايش بين المسلمين والمسيحيين، حياة حتى فى الحرب فيها تسامح وتقدير وعفو، بين عامة الناس وبسطائهم على الأقل، ممن كان الشاعر يؤلف الشعر لإمتاعهم، ظاهرة لا تجدها فى كتب التاريخ، وهى تقدم وجهة النظر الرسمية، وتمثل رأى المستفيدين من إذكاء الصراع وحث الناس عليه، وإنه لأمر ذو أهمية بالغة أن القتال بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس، لم يأخذ فى أية ملحمة قشتالية معنى وطنيا قوميا.

فإذا تجاوزنا التأثير العربى فى نشأة الملاحم القشتالية بعامة، إلى ملامح هذا التأثير فى ملحمة السيِّد على نحو خاص، أقدم ملحمة قشتالية وصلنا نصها كاملا ومدوناً، كان علينا أن نضع فى الاعتبار عدة حقائق : أن النص الذى بين أيدينا ليس هو النص الأصلى الذى كُتِبَ قريباً من النصف الأول للقرن الثانى عشر، وأن إضافات أدخلت عليه، ومقاطع حذفت منه، ومواقف صُوِّرت لتواجه مواقف سياسية متغيرة وطارئة، ابتسرت بزوال دواعيها. مثلا كانت الملحمة خلال فترة الصراع بين قشتالة وليون ترسم لنا نبلاء هذه فى صُورة غير كريمة، فلما تغيَّرت الصورة السياسية، بزوال العداوة، وتوحدّت الدولة والملك والراية، تغيرت نظرة الشعراء لنبلاء ليون، فحذفوا من الملحمة كل ما يسىء إليهم.

وفى ضوء هذا الواقع يحق لى أن أفترض أن جانباً كبيراً مما يتصل بالإسلام والمسلمين دخله التعديل، وأصابه البتر، لقد أنشد الشاعر الملحمة لأول مرة وسلطان المسلمين فى الأندلس كان متيناً، رغم كل الهزائم، وحضارتهم مزدهرة، وثقافتهم جذابة، وتشمل دولتهم الجانب الأعظم من شبه الجزيرة، وأكاد أتصور أن حظهم من أحداثها، كان أوفى مما هو عليه، وأن تقدير الشاعر لهم كان أوضح، وأن التعبيرات العربية، ألفاظاً وجملا، كانت أكثر شيوعاً، وليس من المغالاة فى شىء أيضاً أن أقول : إن نسخة منها بعامية أهل الأندلس كانت تُسمع بين المستعربين فى الجانب الإسلامى، وبين المدجنين، أعنى المسلمين الذين يقيمون فى الجانب المسيحى، غير أن هذه قضية أخرى سوف أعود إليها فى نهاية هذا الحديث، ويكفى أن نشير الآن إلى أن أول شاعر أنشد الملحمة كان مستعرباً، أى مسيحيًّا يعيش فى الجانب الإسلامى، ويتكلم العربية لغة، أو العامية منها على أقل تقدير، يعايش المسلمين، وحياته اليومية مطبوعة بتقاليدهم، وأنه قالها فى مدينة سالم، ومن الإشارات ما يحدد أنه كان ينشدها فى ميدان المدينة الكبير، وكانت الجالية الإسلامية فى مدينة سالم كبيرة، والمستعربون فيها قلة، لأنها - كما يهدى إليه اسمها - أنشأها مسلم بدءا، ولم تكن موجودة قبل وصول المسلمين، وفيها دفن **المنصور بن أبى عامر** حين فجأه الموت قريباً منها عام ١٠٠١ م.

لا يمكن الجزم بأن الشاعر الجوّال وهو ينشد ملحمة السِّيد احتذى قصيدة عربية معينة. أو ملحمة شعبية محدّدة، لأن الأدب الشعبى فى العربية، وفى كل اللغات، قطع مرحلة كبيرة من حياته يُردِّدُ شفاها، وظل لقرون عديدة موضع احتقار كبار الأدباء والمؤرخين فلم يسجله أحد، والإمساك بخيوطه وتتبع روافده أمر عسير المنال. لكنى أجد الكثير بين **ملحمة السِّيد وسيرة بنى هلال** من

جوانب التوافق، فكلتاهما رواية شعبية، غير ذات طابع أسطورى، وانتقلت شفاها عبر سنين طويلة، وتتناول أحداثا وبشراً لهم أو لجلهم واقع تاريخى، لا ترتفع بهم إلى مصاف الآلهة، ولا تضفى عليهم من الصفات ما ينافى طبيعتهم البشرية، وكلا البطلين ثائر على السلطة، منفى يقاتل لحسابه، وكلتا الملحمتين لا تتناول من قضايا العاطفة والحب إلا حب الرجل زوجته، وعطفه عليها، وخوفه من فراقها، وفرحه بلقائها، وتذكّرها عند غيابها، وتجرى على لسان الزوجة من العواطف، محزونة أو مبتهجة، مثل ما تجرى على لسان الزوج، فهى تبكيه مودِّعة، وتدعو له راحلا، وتتعلق به بعيداً غائباً.

وتجد **اليهود** فى كلتا الملحمتين على صورة متقاربة، يشتغلون بالتجارة والصيرفة، وبالربا والرهونات، ويحرصون على المال حرصاً شديداً، وهم من أجل الربح ينافقون ويصانعون، ويستعينون دائماً على قضاء حوائجهم بالكتمان. وتكاد صور الحرب أن تكون فيها واحدة، من قطع الطريق، وحجز الماء، وضرب الحصار، وتدمير المزارع، واستخدام الجوع سلاحا، وتزخران بالحركة المستمرة، فما تكاد الواحدة تخلص من وقعة إلا لتبدأ فى أخرى، ولا تغادر موضعاً إلا لتدخل فى موضع آخر، ومن ثم فهما لا تلتفتان إلى ما تعودنا عليه فى حياتنا اليومية المستقره الوادعة.

التأثير اللغوى العربى نلتق به فى الملحمة خلال عدد من الكلمات العربية تُذكر بلفظها، وتُرسم فى حروف لاتينية، دقيقة أحيانا، ومحرفة أحيانا أخرى، وأكثرها تداولا أداة النداء «يا» Ya ، فنجد مثلا ياسيد **Ya Cid** وياسيّدى **Ya Senor** ، وليس للنداء فى اللغة القشتالية، ثم الإسبانية من بعد، أداة معينة للنداء، فإذا اضطرت إليه استخدمت الصوت Oh، ولم تذهب «يا» من اللغة الإسبانية المعاصرة كليّة، وإنما انفصلت عن معنى النداء، وأصبحت

تعبيراً عن التنبيه بصفة عامة.

وحرف التنبيه «ها»، والذى يسبق الضمائر المنفصلة أحيانا، وأسماء الإشارة، وأصبح جزءاً من هذه الأخيرة، يأتى على هذا النحو فى الملحمة فيسبق الضمائر القشتالية المقابلة للضمائر العربية، التى يمكن أن تسبقها «ها» التنبيه هذه، ولكن فى نطقه العامى «أهُو» أو مما لا «أهِهْ» Afe، مثل Afevos أى ها أنتم، لأن F كانت هى و H سيان فى قشتالية العصر الوسيط، وأحيانا يأتى فى صورته العامية، ولكن غير مسبوق بالهمزة فيصبح Fe، أى «هه» مالة، كقول الشاعر فى الملحمة Fem ante vos ها أنا أمامكم، وهى ظاهرة تخلصت منها الإسبانية المعاصرة، باللغة المعلمة عن طريق الكتاب والمدرسة، ثم الصحافة والإذاعة. ففى مرحلة من تاريخ إسبانيا كان هناك من يحرص فى شدة على تنقية الإسبانية، بالعزوف ما أمكن عن استخدام الكلمات ذات الأصل العربى، غير أن هذا الاتجاه خف الآن، لأن كل اللغات الحية سخية تأخذ وتعطى، فى ضوء قوانينها، دون انتظار لقواعد تفرض عليها من خارجها.

وتستخدم الملحمة لفظ «حتى» Fasta مرادا به انتهاء الغاية، كما فى العربية، فيقول الشاعر إن الغارات وصلت حتى القلعة Fasta alcala وبقى مستخدما فى الإسبانية المعاصرة، كما كان عليه فى القشتالية القديمة، وكما هو فى العربية الآن، ولو أنه فى النصوص الحديثة يرسم طبقا للإملاء الحديث hasta وهو حرف من أكثر ألفاظ لغة الحياة دورانا على الألسنة، فيقال: حتى الصباح، حتى قريب، حتى غدًا، حتى أراك...

وثمة ألفاظ أخرى، فطليعة atalaya جيش السيِّد تقوم بالغارة algara ومن بين ما يلبسه السيِّد الكوفية Cofia واسم جيشه المحلة almohalla، ويطلق أحياناً

على المكان الذى يعسكر فيه. وكلمات : القائد alcaide والقاضى alcalde والمصلَّى almoçala وتعنى السجادة، وكان العرب يطلقون على أسرة كونت « كاريون » اسم Beni Gomez فتأتى الملحمة وتتحدث عنهم فى هذه الصورة Vanigomez بدل أن تقول أبناء غومث بالقشتالية hijos de Gomez، وغيرها.

وإذا تركنا الكلمات إلى التعابير، فسنجد بينها ما هو من خصائص اللغة العربية، ويكاد يكون ترجمة حرفية لها، ونكتفى منها بتعبير يتردد كثيراً وهو بكت عينه Llorar de los ojos أو بكى من قلبه Llorar de Coraçon وهذا التعبير الأخير لا يعرفه أى أدب أوربى باستثناء الأدب الإسبانى، والشعر البروفنسالى.

فإذا تجاوزنا الألفاظ والتعابير إلى النظم والتقاليد، وجدنا السيد فى الملحمة، يقسم الغنائم طبقاً للشريعة الاسلامية، فله الخمس بوصفه رئيساً لتابعيه ومستقلا عن أية دولة أخرى، والباقى يقسم على المقاتلين، للراجل سهم وللفارس سهمان. ويجرى القتال على الطريقة العربية، فتبدأ الحرب بالمبارزة، وعلى قائد الجيش عند بدء الهجوم أن يتقدم ويصيح باسمه، وينادى : هل من مبارز ؟ فإذا احتدم القتال، راح القائد يجول بين الصفوف ويهتف باسمه عاليا، ليثبت جنده ويبث فيهم الشجاعة، ويذكِّر بأنه معهم حى يقاتل ، والسيد فى كل معاركه لا يكاد يتقدم حتى يردد اسمه عاليا. ونعرف من الملحمة أنه عند الحرب ينادى المسلمون النبى محمدا يستلهمونه النصرة، بينما يصيح المسيحيون باسم القديس يعقوب، شنت ياقب Santiagoفى المصادر العربية القديمة، وكانت الدية تقبل فى حالات القتل الخطأ، عوضاً عن القصاص، وتنهض بها الأسرة كلها، وهو نظام إسلامى بحت، وليس له مثيل فى شريعة المسيحيين،

أما فى حالات القتل العمد فلا بد من الثأر، والتنازل عنه فى حكم المستحيل، على نحو ما أشرنا إليه من قبل.

ونجد فيها التصافح باليدين عقب أى اتفاق، تأكيداً على الوفاء به، وقد يكون التسليم باليدين علامة الرضا على أمر مطلوب، دون حاجة إلى موافقة مسبقة، وهى عادة لا تزال جارية حتى اليوم فى قرى إسبانيا الصغيرة. ويكثر فى الملحمة تقبيل اليدين، من الصغير للكبير، ومن الأقل للأعظم احتراماً، ومن الزوجة لزوجها، والبنت لأبيها حبًا وإجلالا، ومن الفارس للملك خضوعاً وتبعية، وقد تكون طلباً للمعروف أو شكراً عليه، فاليهوديان اللذان أودعهما السيِّد صندوقيه، يقبلان يديه شاكرين، ثم يعيدان تقبيلهما طالبين معروفاً، وتعبير يقبل يدكم فى الملحمة تعنى: يطلب منكم معروفاً.

ومظاهر التعبير عن الحزن فى حالات الموت أو الفراق أو الهزيمة، أو غيرها أن يرسل المرء لحيته، وألا يقص شعر رأسه، وألا يقلم أظافره أحياناً. وقد يفعل هذا معلّقا على وعد أو قسم أو نذر يجب أن يبرّ به أوّلاً، وهى ظاهرة لم تختف تماماً، ومن أبرزها أن فيديل كاسترو، زعيم ثورة كوبا ورفاقه، أقسموا وكانوا مبعدين عن وطنهم منفيين، ألا يحلقوا لحاهم إلا بعد تحرير وطنهم، فلما حرروه حلقها بعضهم، وأبقتها الغالبية إلى ما بعد الانتصار على التحديات الكبرى التى تواجههم فى معركة البناء الداخلى. والإمساك بلحية شخص آخر فى مقام الاختلاف إهانة بالغة، وكان السيِّد حريصاً دائماً على تجنبها، فهو يمسك بلحيته، محافظاً عليها، ومحذراً فى نفس الوقت، ومن نافلة القول الإشارة إلى أن هذه العادات عربية، وماتزال حية فى مدننا وقرانا حتى اليوم.

ويتردد إكرام الضيف، والمبالغة فيه، على الطريقة العربية، فى كل أناشيد

الملحمة، ونجد الخيل فى حفلات النصر والسباق، والمهرجانات العائلية والعامة، تزين رقابها وسروجها، باللامع من الستائر، والمذهب من الأجراس، والحرير الذى يسرج به السيد خيله أو يرتديه، مصرى مستورد من الإسكندرية، ونجد ابنتى السِّيد تتزوجان مرتين، وهو تأثير إسلامى بحت، ويعزز رأى **دوزى** فى أن **السِّيد** كان نصف مسلم ونصف مسيحى، ورأى **خوسيه كمون أثنار** José Camon Aznar، أستاذ تاريخ الفن فى العصور الوسطى، الإسلامى والمسيحى، والعميد الأسبق لكلية الآداب فى جامعة مدريد، فهو يرى أن السِّيد كان مستعرباً، أى مسيحيًّا يقيم بين المسلمين، يتحدث لغتهم ويحتذى ما هم عليه من تقاليد، لأن الملحمة صريحة فى أن بنتى السِّيد تزوجتا لثانى مرة وأن تركهما للزوجين الأولين كان انفصالا ولم يكن ترملا، والكنيسة الكاثوليكية لا تقر الطلاق بحال، وبخاصة للعاديين من الناس، غير الملوك والمنتمين إلى الأسر الكبيرة أو الحاكمة.

إلى جانب التأثير اللفظى والتعبيرى، والتقاليد والعادات، نجد من بين قصص الملحمة ما هو من أصل عربى أكيداً. فعندما نفى الملك **ألفونسو السادسُ** السِّيد من قشتالة، ولم يكن معه ما يواجه به الحياة هو وتابعوه، أراد الاقتراض من يهوديين فى برغش، هما **راكيل وفيداس**، يقومان بالصيرفة، ويقرضان بالربا ومقابل رهن؛ ولم يكن مع السِّيد ما يرهنه لهما فقرر أن يحتال عليهما. أحضر صندوقين بفن وإحكام، ومكسوين بالجلد المزخرف، ومساميرهما وأقفالها مذهبة، وملأهما رملا ليثقل وزنهما، وأوهم اليهودين بأن فيهما كل ثروته، من ذهب ومجوهرات، ولا يستطيع أن يحملهما فى رحلته منفيًّا، وفى حاجة عاجلة إلى المال ويريد رهنهما، فقبلا مسرورين، ودفعا له مقابلهما

ست مائة مارك، لأجل لا يزيد على عام. وهى خدعة فى غير موضعها، ولكن الشاعر يدافع عنها بأن السيد كان مضطراً، وأن اليهوديين كانا البخلَ مجسَّماً.

الخداع على هذا النحو رائج فى الحكايات العربية، وبخاصة فى قصص «ألف ليلة وليلة»، وغيرها من الحكايات الشعبية التى تعود إلى العصر الوسيط؛ وحكاية الخداع بالرمل كانت معروفة وشائعة على نحو واسع فى الأندلس، وأعطاها المزيد من الذيوع والانتشار فى الأدب الأندلسى المسيحى وعنه نقلتها الآداب الأوربية، ، يهودى أندلسى يدعى رابى موسى سَفَردى، وكان معاصراً للسيد، ويعيش فى الأرض التى كانت مسرح أحداثها، فهو ينسب إلى مدينة وشقة، واحدة من كبرى مدن مملكة سرقسطة، وبها ولد عام ١٠٦٢م، ثم اعتنق الكاثوليكية واتخذ اسم بدرو ألفونسو عام ١١٠٦م، وألف كتاباً أسماه «تربية العلماء Disciplina Clericalis»، وليس فيه من المسيحية غير المقدمة والعنوان، وبقيته حكايات عربية، وحتى تركيب الجملة التى يستخدمها فيه سامية أكثر منها لا تينية؛ ويُعتقد أنه كتبه أولا باللغة العربية، ثم قام بترجمته إلى اللغة اللاتينية من بعد. وهو نفسه يصرح بأن جانباً من كتابه يضم أمثلة وحكماً من الفلاسفة العرب، والجانب الآخر أساطير وأشعاراً؛ أو مواعظ على ألسنة الطير والحيوان، وتبلغ حكاياته العربية ثلاثين حكاية،وبعضهم يبلغ بها أربعاً وثلاثين، أو تسعا وثلاثين. ونال فى عصره شهرة واسعة، ولقى إقبالا عظيماً، ونُشِرَ تحت عناوين كثيرة، وفى لغات مختلفة، رومانثية أو لا تينية، وطارت شهرته عبر كل الآفاق، فعرفته القشتالية والقطلونية والبروفنسالية والبرتغالية والفرنسية والألمانية والإيطالية، والإسبانية فى أكثر من ترجمة.

من بين حكاياته العربية واحدة تقول : إن رجلا كان يريد الحج إلى مكة؛ فلما أعوزته النقود احتال عليها، فدفع إلى مراب يهودى عشرة صناديقَ مليئة

بالاحجار، أقفالها مفضضة، وطلاؤها جيد، فجازت الخدعة على المرابى، وأعطاه المال الذى يحج به. وإذا استثنينا عدد الصناديق، والهدف من طلب المال، فإن التشابه بين القصتين يكاد يكون كاملا. وما من شك فى أن الشاعر كان يعرف القصة العربية، قرأها فى كتاب بدرو ألفونسو، أو سمعها حكاية من أفواه الجماهير، والقصص الذى من هذا النوع كثير، وسهل الذيوع والانتشار، وخدعة الصناديق هذه سوف نجدها بعد قرنين من الزمان عند الكاتب الإيطالى بوكاشيو Boccio (١٣١٣-١٣٧٥) فى مؤلفه الشهير Decameron.

وثمة قصة أخرى فى الملحمة ذات أصل عربى، فبينما كان السيد فى قصره مستلقيًا على سريره، ومعه صهراه، زوجا بنتيه، أميرا «كاريون» وحوله خاصته، إذ خرج أسد من قفصه فى حديقة القصر، فهرب الناس جميعاً، واختبأ الأميران وخافا، وأوشكا أن يموتا من الرعب، وأخذا يترحمان على أيامهما فى «كاريون»؛ وأنهما لن يرياها مرة أخرى. فما كان من السيِّد إلا أن نهض من سريره، واتجه إلى الأسد، فلم يكد هذا يراه حتى تلاشت صولته فأمسك السيِّد برقبته، وانقاد له الأسد طائعاً ومضى به السيِّد حيث أعاده إلى قفصه من جديد[1].

أقول إن هذه القصة ذات أصل عربى؛ رغم أن عدداً من المستشرقين راحوا يبحثون عن أصل لها فى كل الآداب إلا فى الأدب العربى، ربما لأنهم يجهلونه، ذلك أن لقاء الأسود وترويضها أو الأنتصار عليها قديم جداً فى الأدب العربى، ولدينا منه ألوان مختلفة، وأقدم مظهر له فيما أعرف، قطعة من روائع القصيد، **لبشر بن عوانة**، شاعر جاهلى من القرن السادس الميلادى، يحكى

---

(١) انظر القصيدة رقم ١١٢.

لصاحبته؛ فى خيال ممتع وقص بديع؛ ولغة سلسلة، كيف لقى الأسد؛ وكان له شجاعة وإقداماً؛ نصحه أن يمضى لحاله؛ وأن يلتمس قوته عند غيره، لكن الأسد لم يسمع له ومشى إليه؛ فما كان من بشر إلا أن سل مهنده؛ وقدّ أضلاع الأسد؛ فخرّ مضرجاً فى دمائه :

أفاطمُ لو شهدت ببطن خَبْتٍ وقد لاقى الهزبرُ أخاك بشرَا
إذاً لرأيتِ ليثاً أمّ ليثاً هزبراً أغلباً لاقى هزبرا
تَبَهْنَسَ إذ تقاعسَ عنه مهرى محاذرةً، فقلت : عقرتَ مهرا
أنلْ قدمىَّ ظهرَ الأرضِ إنّى رأيتُ الأرضَ أثبتَ منك ظهرا
تحاولُ أن تعلّمنى فراراً لعَمْرُ أبيك قد حاولتَ نُكرا
وقلتُ له - وقد أبدى نصالاً محدَّدةً ووجهاً مكفهرًا -
نصحتُك فالتمسْ ياليثُ غيرى طعاماً إنّ لحمى كان مرًّا
وأنتَ ترومُ للأشبال قوتاً وأطلبُ لابنة الأعمام مهرا
ففيمَ ترومُ مثلى أنْ يُولّى ويتركَ فى يديكِ النفسَ قهْرا
فلمّا ظنَّ أنَّ النصحَ غشٌّ وخالفنى كأنى قلتُ هُجرا
مشى ومشيتُ من أسدين راما صراعاً كان إذْ طلباه وَعْرا
وأطلقتُ المهنَّدَ من يمينى فقدَّ له من الأضلاع عشرا
فخرَّ مضرَّجاً بدمٍ كأنى هدمتُ به بناءً مشمخرًا
وقلتُ له : يعزُّ علىَّ أنّى قتلتُ مناسِبى جَلَداً وفخرا
فلا تجزعْ فقد لاقيتَ حُرًّا يحاذِرُ أن يُعابَ فمتَّ حرًّا

غير أن القصة التى أراها أصلا مباشراً لما فى الملحمة، لتشابه الظروف ولأنها كانت رائجة فى المغرب والأندلس، وجرت أحداثها فى الوقت الذى كان فيه الشاعر يتهيأ لتأليف ملحمته، قريباً من عام ١١٤٠م، تتصل بامير الموحدين

عبد المؤمن بن على، وكان الأندلس يكوّن جزءاً من إمبراطورية الموحدين، وخلاصتها أنه عندما تُوفى **محمد بن تومرت**، مهدىّ الموحدين، عام ١١٣٠ م، لم يعلم بموته أحدا سوى عبد المؤمن بن على (١١٠٠-١١٦٣)، فأخفى خبره، ولبث يحكم باسمه ثلاثة أعوام كأنه حىّ، وأدرك أن أعضاء مجلس العشرة[1] الذين إلى جانبه، يطمحون فى مثل ما يطمح إليه من تولى الإمارة، وخشى أن تمزّق الخلافات والحرب الأهلية الإمبراطورية الوليدة، فقرّر أن يحتال للأمر. فربّى أثناء قيامه بالحكم شبلا، روّضه حتى صار أنيساً كالكلب، ودرّب طائراً على أن ينطق بهذه الكلمات : « النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين، سند المملكة وناصر االدين ». ولما كمل ترويض الأسد، وتدريب الطائر، أقام حفلا دعا إليه شيوخ الموحدين وأكابرهم، وأقام منصة عالية جلس فى صدرها، ثم نعى المهدىّ إلى الحاضرين، بين مظاهر الحزن العميق، وقال إنه أعرب فى كلماته الأخيرة عن أمنيته فى أن ينبذ الموحدون أهواءهم ومصالحهم الشخصية، وأن يختاروا من بينهم رجلا يولونه الزعامة، ولما انتهى من خطبته ساد صمت رهيب، وإذا بطائر ينطق فجأة : « النصر والتمكين، للخليفة **عبد المؤمن** أمير المؤمنين، سند المملكة وناصر الدين ». وفى الوقت نفسه انفتح باب خفى كان يحجب الأسد، فانطلق مزمجراً بين الحاضرين، منفوش الشعر، مكشر الأنياب، رافعاً ذيله، وعيناه تقدحان شرراً ،فذعر الناس وارتعدت فرائصهم، فبادر عبد المؤمن إلى الأسد، فأنس إليه فى الحال، وأخذ يلعق يديه فى هدوء، فدهش الحاضرون، ورأوا فيما حدث معجزة،

---

(١) مجلس العشرة أحد مجلسين كانا إلى جانب **ابن تومرت** أمير الموحدين، يعاونانه فى الحكم، ويتكون من عشرة أعضاء، هم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته، وكان الثانى يتكون من خمسين عضواً، ينتمون إلى قبائل شتى، وكان ابن تومرت يسميهم جميعاً بالمؤمنين.

ودعوة إلى تولية عبد المؤمن بن على، فبايعوه بالإمارة راضين[١].

تلك هى القصة العربية، ولا فارق بينها وبين قصة الملحمة إلا فى الجزئيات وأسماء الأبطال، وظروف المناسبة، وهى هنا كما هناك أسطورة مصنوعة، فموت **ابن تومرت**، وتولية **عبد المؤمن**، أوردهما لنا **عبد الواحد المراكشى** فى كتابه «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» وهو مؤرخ مغربى عاصر الأحداث، فلم يشر إلى شىء من هذه الأفاويه، وفصّل القول فى الأمر، فذكر أن ابن تومرت دعا «جماعته» قبل أن يموت بأيام، فخطبهم وأوصاهم، وكان هو الذى اختار عبد المؤمن خلفاً له، علانية وعلى رؤوس الأشهاد.

وكما وجدنا أثر قصة الخداع بالصناديق المملوءة رملا فى أدب بوكاشيو الإيطالى، فستعبر قصة الأسد جبال البرانس إلى فرنسا، ونجد صداها فى ملحمة أدنيه Adenet ، ففى أسطورة «برت ذات الأرجل الطويلة Berte aus grans Piés» منها ؛وكتبت قريباً من عام ١٢٧٥، يهرب أسد الملك من قفصه، ويرعب كل من فى القصر، فيتصدى له ببينو Pepino ، وهو فى العشرين من عمره، فيصارع الأسد وينتصر عليه ويقتله.

يبقى الجانب الآخر من القضية، وهو أدق معالجة، وأظلم طريقاً، وأفقر توثيقاً. لماذا أغفلت مصادر الأدب الأندلسى التى بين أيدينا الملحمة فلم تشر

---

(١) أورد هذه القصة **ابن أبى زرع الفاسى** فى كتابه «الأنيس المطرب بروض القرطاس، وأخبار ملوك المغرب ومدينة فاس»، ص ١٢٠، طبعة المستشرق **كارل تورنبرج**، أبسالة ١٨٤٣، وارتضيها أسطورة، ولا اطمئن إليها تاريخاً، وذكرها كتاب «الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية»، المطبوع فى تونس، والمنسوب وهما إلى **لسان الدين بن الخطيب**، ص ١١٣، ولكن بصورة أخرى، وفى مناسبة لا صلة لها بتولية عبد المؤمن إمارة الموحدين.

إليها من قريب أو بعيد؟

كان حظ **السِّيد** شخصاً فى المصادر العربية على النقيض من الملحمة، فقد عُنى به معاصروه، وتحدثوا عنه مؤرخين، ذكروا من أخلاقه ما كان جميلا يحمد، وما كان سيئاً يذم، وأفرد له **ابن بسام** فى كتابه الذخيرة صفحات، وألف **ابن علقمة** فى حصاره لبلنسية كتاباً ضاع نصه فى العربية، غير فقرات نقلها من جاءوا بعده، كابن عذارى ولسان الدين بن الخطيب، ونقلت معظمه مترجماً إلى القشتالية «مدونة تاريخ إسبانيا العام»، وتميزت أخبار المصادر العربية بالدقة والتحرى والموضوعية، بينما جاءت روايات المصادر المسيحية، فى غير ما نقلت عن العربية، أساطير وحكايات التقطت من أفواه الشعراء الجوالين بما فيها من خيال وتزيد وأوهام، قصد بها جذب انتباه السامعين. وإذا فلم يكن السيد نفسه غريباً عن المصادر العربية، أما الملحمة نفسها فكأنها تنتمى إلى عالم آخر غير الأندلس، قصىّ وبعيد.

ينبغى أن نستبعد أصلا أن الأندلس الإسلامى كان يجهل الملحمة تماماً، مثقفيه وعامته، فى الوقت الذى كان فيه خاصة الأدباء فى بغداد يتناشدون إلياذة هومير، أو شيئاً منها، فى نصها اليونانى، أو منقولة إلى السريانية، وكتبت بعيداً عن العرب، فى أرض اليونان، وتنتمى إلى أدب يفصله عن قيام الدولة العباسية قريباً من ألف وستمائة عام.. بينما هؤلاء يعيش الشاعر بينهم، وينشد الملحمة فى مجامعهم، وإذا فعلينا أن نبحث لسكوت المصادر عن سبب آخر غير الجهل بها.

أول مؤرخ أدبى وصلنا كتابه، وعاش بعد إنشاد الملحمة زمناً يسمح له بأن يتابع أخبارها، هو أبو بكر **ابن خير** الإشبيلى، المتوفى عام ١١٧٩م، لكن مؤلَّفه «فهرسة ما رواه عن شيوخه» كما ينبىء عنه عنوانه، مجرد قائمة بأسماء

الكتب التى درسها، أو أجيز له روايتها، مما تثقف بـه فى صباه وبـدء شبابه، وهى مرحلة من العمر تسبق إنشاد الملحمة، فبـديهى ألاّ تقع الملحمـة بـين الكتب التى تلقاها عن أساتذته، لأن مكانها الذى تسمع فيه هو قصر الأمير او سوق المدينة.

ويأتى بعده، ممن عنوا بالتاريخ الأدبى، **ابن بشكوال** المتوفى عام ١١٨٢م **والضبى** المتوفى عام ١٢٠٢، واتجهت عنايتهم إلى الـتراجم، ومـؤلفاتهم تـكملة لكتب أخرى سبقتها، فهم مقيدون بمنهـج سـابقيهم، وبـطبيعة المادة نفسـها، ومؤلف الملحمة شاعر جوال ومجهول، لا ترتفع بـه مهنتـه إلى أن يُـترجم لـه، وليس ثمة فرصة متاحة للحديث عنه، حتى لو أراد المؤلفون.

أما **ابن الأبار** عام ١٢٦٠م، فكان مؤرخاً أوضح منه أديبًا، وسياسيًّا أكثر منه مؤرخاً، وشغل بأحداث عصره، ومؤلفاته تدور حولها، فلم يتسـع لـه وقتـه ليهبط حيث الشعراء الجوالون، وهو بلنسى الأصل، وعاش أيامه فى زمن مشابه لما كانت عليه بلنسية أيام السيد، فقد زحف عليها **جاقمة البرشلونى**، خـايمة الأول الغازى Jaime I el Conquistador ، واستولى عليها عام ١٢٣٨، وسفر ابن الأبار بين المدينة وأمراء المسلمين فى الشمال الأفريقى يطلب عونهم، وانتهت بـه الإقامة فى تونس، حيث مات مقتولا عـام ١٢٦٠ م؛ وهـو يـأتى فى « الحلـة السيراء » على ذكر السيد مرتين، ولكنه فيهما عالة على ابن بسام.

هؤلاء الأدباء المؤرخون ابتداء من ابن بسام، وانتهـاء بـابن الأبـار، كـانوا يحررون تراجمهم وأخبارهم، فيما يبدو لى، داخل اتجاه سياسى محـافظ، يقف فى وجه اتجاه شعبى زاحف، مضاد للاتجاه العربى، يهاجمهم أولا من جانب اللغـة والأدب، يحتقر ما يوقرون، ويستخف ما يعظمون، وينشىء لنفسه أدباً يتغنى به وينشده، فحالَ هؤلاء بين هذا الأدب وبين أن يصبح تراثاً مـسجلا ومـكتوباً،

وهذا ما يفسر لنا عزوفهم عن الموشحات وجمعها، أو تضمين مؤلفاتهم شيئاً منها، رغم أنهم ترجموا لعدد من الوشاحين كشعراء أو سياسيين[١] ومثل هؤلاء لا يتوقع منهم، ولا يطلب، أن ينتبهوا لملحمة تمجد السيد، وتكتب فى الرومانثية.

كان **ابن سعيد**، المتوفى عام ١٢٧٦ م، أول أديب أندلسى نلتقى به وقد خفَّت قبضة الاتجاه المحافظ، فلم يتردد فى أن يضمن كتابه «المغرب فى حلى المغرب»، وقد تعاون على تأليفه مع أسلافه من أسرته، موشحات وأزجالا كتبت فى العامية الأندلسية، لكن هذا المؤلَّف العظيم ضاع، ولم تصلنا منه غير أوراق متناثرة، عكف **الدكتور شوقى ضيف** على جمع وترتيب ما وجده منها خاصًّا بالأندلس، فجاء فى مجلدين، وهو قليل من كثير، فأصل الكتاب يقع فى خمسة عشر مجلداً، خص الأندلس منها بستة. فهل تضم الأجزاء الضائعة إشارات إلى ملحمة السيد؟ أكاد أتصور هذا، فقد وقف الرجل جزءاً من مؤلفه على الأندلس المسيحى، أسماه «كتاب لحظة المريب؛ فيما بقى من جزيرة الأندلس لعباد الصليب»، وصلنا عنوانه، وصفحة واحدة منه.

وبعد **ابن سعيد** تحدق بالأندلس الإسلامى أخطار جسام، وتتخطفه النوائب من كل جانب، ويقفر فى مجال الأدب، ويضيع ما يكتب وماورث مع الزمن، فلا نعرف مؤرخين أدباء بعده غير اثنين، **لسان الدين بن الخطيب**، وكان سياسياً ووزيراً، وشاعراً عذباً، ووشاحاً رقيقاً، وناثراً مجوداً، لكنه يقف، بحكم تكوينه الطبق والثقافى، فى الصف المناوىء للأدب الشعبى، وانحصرت حياته بين غرناطة وشمال أفريقية، وكانت غرناطة على أيامه نهباً

---

(١) فصلت القول فى هذا الاتجاه عند دراستى لابن بسام وكتابه الذخيرة، فى كتابى «دراسة فى مصادر الأدب»، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر، ١٩٨٣.

موزعاً بين القلق والثورات والحروب، فلم يلتفت مؤرخ غرناطة ووزيرها إلى ملحمة السيد، كان مشغولا بما هو أفدح وأخطر. أما معاصره **ابن خلدون**، فإقامته بالأندلس كانت قصيرة، وارتبطت اهتماماته بفلسفة التاريخ فلا يعرض للقضايا الأدبية إلا ما كان منها تفسيراً لمذهبه، أو يتخذ منه الشاهد والاقتباس.

كان إعراض العرب عن ترجمة **الإلياذة** والإفادة منها يرجع إلى أسباب أهمها الدين، فمن الطبيعي أن يُعرض المسلمون عن شعر يزدحم بالآلهة المتصارعة والمتعددة والمختلفة، والإقبال عليها فوق طاقة شعب موحِّد، يجل الإله ويرتفع به فوق الرذائل، ولم يكن المسلمون وحدهم فى هذا الاتجاه، فسارت المسيحية على أيامها الأولى فى نفس الطريق، فكانت تحرم تدريس الإلياذة خشية أن تفسد عقائد أبناء المسيحيين. وربما كان من الأسباب أيضاً صعوبة فهم اللغة اليونانية على المثقفين العرب، وعجز المترجمين السريان عن نقلها إلى العربية أدباً، **وشهنامة الفردوسى** وقد خلت من هذه الصعوبات ترجمت إلى العربية فعلا، ترجمها **الفتح بن على البغدادى الأصفهانى**، بإشارة من الملك **عيسى بن العادل أبى بكر الايوبى**. لكن ملحمة السيد كتبت على أرض الأندلس، وبين المسلمين، وصانعها كان يجيد العربية بالقدر الذى يجيد فيه اللغة القشتالية التى كُتِبَتْ فيها، وأتصور أن عامة المسلمين كانوا يفهمونها، إذا أنشدت فى نصها الأصلى، على النحو الذى كان يفهمها فيه عامة المسيحيين، وتصوّر بطلا نصف مسلم ونصف مسيحى، تصويراً واقعيًّا بلا خرافات ولا أساطير، وكانت على ما رأينا تحمل طابعاً إسلاميًّا فى تقاليدها، وما تحكى من عادات، ولأنْ يهملها كتاب يحتقرون الأدب الشعبى فشىء يعرفه التاريخ فى القديم والحديث، فى الشرق والغرب، أمّا أن تصمت عنها كل

الوثائق، فشيء أعلله بأن مصادر الفترة المتأخرة التى تلت إنشادها، وربما تضمنت شيئاً عنها، ضاع معظمها أيام الفتن، أو بعد أن سقطت دولة المسلمين.

كذلك نفتقد أية محاولة لتقليدها بين شعراء الأندلس المسلمين، فى شعر فصيح أو زجل عامى؛ وهى ظاهرة واضحة التفسير، فالأندلس الإسلامى لم ير بعد **المنصور بن أبى عامر** قائداً عظيماً يستحق أن يُبكى ويُمجد، لقد عرف الصراع المستمر مع الأندلس المسيحى شجعاناً لا يهابون الموت، وجنداً يقاتلون بشرف؛ لكن الفارق بين الشجاعة والبطولة كبير.

ومع انحدار شمس الأندلس الإسلامى إلى المغيب أصبحت غاية الشاعر أو الاديب أن ينتهى به المطاف إلى بلاط أمير أو كبير، يشاركه خلىّ البال متعه المنحلة، والشاذة أحياناً؛ وحوّل الترف البالغ صلابة الحكام إلى رخاوة، وقدرتهم إلى عجز، وقعد بهم عن التدبير المحكم والرأى المصيب، وجعل الشعراء والأدباء لا يرون أبعد من لحظتهم، ولا يفكرون إلا فى يومهم؛ مجالس شراب، ومخادنة نساء، فقصروا عن كل إبداع أصيل ،وأى فنان لا يستطيع أن يبدع إذا لم يعرف القلق ويعايشه. وكان العامة فى يأس مطبق، همومهم كبيرة، وأحزانهم طافحة، وحقدهم على الحاكمين دفين، ومع العجز عن التغيير؛ تغيير الحاكمين وتغيير الواقع، سجنوا أنفسهم داخل ذواتهم، وتركوا القافلة تسرع نحو الهاوية بلا أبطال ولا أمجاد.